الهوجة

(شولاط.. حكاية بلد مش ع الخريطة)

د. شريف شاذلي

الهوجة

(شوّلاط..حكاية بلد مش ع الخريطة)/ رواية

د. شريف شاذلي

الطبعة الأولى ، ٢٠١١

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١٠ش عبد الهادي الطحان ، المرج

موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

إسلام جاويش

رقم الإيداع : ٢٠١١/٢٢٠٩

I.S.B.N:٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-١١٨-٢

الهوجة

(شؤلاط.. حكاية بلك مش ع الخريطة)

د. شريف شاذلي

رواية

الطبعة الأولى

٢٠١١



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى مثلى الأعلى..والرجل الذى طالما كنت مدينه له بكل شئ..إلى أبى..وإلى قلب أمى وأم أمى اللتين منحانى كل ما ينبعث من قلمى الآن...

إلى أخى الذى أفتقده كثيرا..وإلى زوجتى الغالية..تلك الحبيبة التى غيرت حياتى....

إلى ابنى (يوسف)..سر حياتى وكل ما ملكت وأملك..إلى رفقتى وكل من كان بجوارى حين أحتجت إليه......

أهدى لهذه القيم الكبيرة..هذا العمل البسيط....

د. شريف الشاذلى

٢٠١١

– المقدمة–

(١)

المكان: حجرة..فى قسم شرطة..بين تلافيف قرية صغيرة منسية من قرى تلك الدولة الفقيرة من دول العالم الثالث.

الزمان: لا أحد يعرف..يوم..ربما مرّ منذ زمن وربما لم يأت بعد.

الحدث: الأول....

أغُلق الباب الحديدى الأحمق خلف حطام رجل عجوز مهلهل الثياب..كان يترنح ممسكا بالفراغ وقدماه تزحفان إلى داخل الغرفة الباهتة فى قسم شرطة تلك القرية..كان كمن تسنده ريشة من السقوط..كمن يحمل خلفه ثقلا من الفولاذ..يستند بيده الذابلة على الحائط وقد رفع عينيه الغائرتين فى بحر وجهه المجعد كورقة فى قبضة طفل ليرى الواقفين فى الغرفة..كانوا قليلين..لم يعبأ..سمع فقط الصوت الصارم الرنان:

"أبو هاشم هاشم أبو هاشم".

بدا الشيخ العجوز كمن يسمع هذا الاسم لأول مرة..صمت لحظة..ابتلع ريقه لكنه فى النهاية أجاب:

"أفندم".

سمع الصوت يأمره..يشير إليه فى عصبية كى يعتدل ويولى نصف وجهه لهم..قام بجزعه وانصاع للأوامر..صوت الكاميرات والنور

الساطع..الكلام الكثير من حوله لا يميزه..ترك الرجل نفسه لأفكاره وانسلخ عما يحدث حوله..الذكريات تعيده إلى مدة قصيرة..أسبوع أو أكثر..مدة قصيرة لكنها بالنسبة إليه كانت كالعمر بأكمله وهو ما جاء به إلى هذا المكان..كان ذلك قريبا جدا..قريبا حتى يكاد يلمسه بيده.....

الآن يراه.....

....

"التعميرة ياله"

هكذا تعالت حنجرة العمدة بالصياح الغاضب وهو يستند بجثته المترهلة على الأريكة فيتعالى صوت نحيبها الرنان..مبسم الشيشة فى فمه وهو غارق فى عرقه كالدرفيل..صوت قرقعة الشيشة ثم السحاب الشاحب من بين شفتيه الكبيرتين يتعالى فيبدو كشبورة..كان كالمخدر وكانت عيناه الخاويتان كالمصابيح المحترقة.....

صوت جلبة..يرفع رأسه فى تكاسل لينصت..كان صراعا بالكلمات بين شخص ما وخفيره الذى يحرس الدار..هنا قرر أن يحمل بعضا من الدهون فى رقبته كى يرفع رأسه إلى الأعلى قليلا فى محاولة منه كى يظهر شيئا من شخصيته الصارمة..الصوت من بين أنفاسه الثقيلة يصيح:

"فى ايه ياله منك له؟"

لم يجد ردا غير الجلبة..رفع رأسه محاولا أن يفهم لكنه تراجع مذعورا حين رأى جسد خفيره يصطدم بالباب فيفتحه ويسقط على الأرض كالجوال..كان سمينا مثله لكنه كان خفيرا فى كل الأحوال.......

"فى ايه يا (عب غفور)؟"

"ألحق يا جناب العمدة"

هنا اندفع ظل رجل فى الأربعين من عمره خلف الخفير..كان كالثور الهائج.....

"أبو هاشم؟"

قالها العمدة مترعجا.....

"أيوه يا عمدة".

"فيه..فيه أيه بس يا عم (هاشم)"

"مش عارف فيه أيه يا عمدة النصابين"

تمالك السمين نفسه وقال فى غضب متخاذل:

"ألزم حدودك يا (أبو هاشم)..أنت بتكلم العمدة"

"هو أنت خليت فيها حدود يا واطى..بقى تعملهم عليها وتلهف الأرض وتقولى قال ايه الحكومة عايزها ومش عارف هتبنى

عليها مشروع ولا كوبرى ولا أبصر أيه..وتقولى إن ليك تصريفة مع الناس دى وفى الآخر يطلع الموضوع كله ملعوب منك..حتى الموظف اللى عامل نفسه جى من المحافظة"

ارتجف الرجل..رفع كفه وهتف غاضبا:

"ملعوب!!..مين قال الكلام الفارغ ده؟..ملعوب ايه وبتاع ايه أنا بتاع ملاعيب؟؟"

حدق العجوز فيه بغضب جعله يتراجع عن انفعاله المصنوع ويغوص فى مقعده كالفقاعة..صاح فيه:

"ما كفياك بقى يا عمدة أنت لسه هتأوح وتلف وتدور..ما خلاص الملعوب انكشف..اسمع..أرضى ترجعلى..وإلا والله"

تمالك كرش السمين بعض الشجاعة..ربما الافتراء كذلك فرفع حاجبيه وقال:

"والله ايه؟..متقلش كلام أنت مش قده..الموضوع خلص خلاص..أنت مضيت عقد"

"بالنصب؟؟"

"القانون لا يحمى المغفلين..الأرض كانت ملكك وأنت بنفسك اللى بعت..محدش غصب عليك يا حج"

"يعنى ايه؟"

قالها العجوز مذهولا..رد عليه الرجل وقد تمالك نفسه:

"يعنى تورينى عرض أكتافك"

قال العجوز فى ثورة:

"كتافى؟؟"

لم يشعر (أبو هاشم) إلا وقد صار الوعاء الفخارى فى يده..قلة كما تسمى ثم فى اللحظة التالية وجد نفسه وقد حملها وانقض بها على رأس السمين كالمحارب....

ثم انطلقت صرخة النجدة من فم العمدة......

***

المكان: نفس المكان.

الزمان: لا أحد يعرف بالمثل.

الحدث: الثانى....

تحرك الظل إلى داخل نفس الحجرة..خطواته على العكس واثقة متأنية..والصوت الهادر ينبعث من جديد....

"الغريب سيد"

كان ضخم الجثة..قوى البنية..كثيف الحاجبين عميق التفاصيل كالجبل وكان صوته أشد غلظة منه وهو يجيب فى صرامة...

"نعم"

كان ملثما فأشار له من ناداه بأن يترع اللثام الذى يغطى معظم ملامحه..هكذا توقف الرجل وقال فى فتور:

"يعنى لازم يا باشا؟"

"ياله يا سيدى خلصنا..أحنا فضيلنك".

لم يرق هذا القول للرجل القوى لكنه أنصاع..وجد نفسه وقد كشف مع وجهه ذكريات وقت قريب مضى..ذلك الذى يقرب الأسبوع أو أقل..هكذا صار له أن يكون هنا......

فى هذا المكان.....

....

"كعب الغزال يا متحنى..بدم الغزال"

هو سائق سيارة نقل وقد كان فى حالة (مرتفعة)..يغنى كالأحمق وهو يقود على أول الطريق الزراعى مغادرا نفس تلك القرية الصغيرة..يضرب كشافاته لينير الأخضر من حوله وجسده يهتز مع سيارته لا يدرى هل هذا من فعل الطريق أم من فعل ما يتغنى به......

على جانبى الطريق كانت الجماعة جالسة..مجموعة من الوجوه الملثمة وقد غاصت بين الحقول الكثيفة حاملين السلاح وأعينهم الواسعة تراقب الأحمق القادم من بين الخضرة كالصقور..أنفاسهم مكتومة وعقولهم مذبوحة..لا صوت غير صوت القادم من بعيد خلف ضوء الكشافات.....

"كله تمام يا كبير"

هز الغريب رأسه مع قول الرجال ثم نزع البندقية عن كتفه ورفعها متحفزا بإشارة إلى الأشباح فى الجانب الأخر للتأهب..ثم دون كلمة واحدة تحركت الأقدام والأذرع كي يجد السائق العابث ظلا يهوى أمام كشافات سيارته..عرف أنه جزع شجرة ضخم فتوقف مذعورا...

"أستر يا رب"

ثم رأى مجموعة من الأشباح السوداء تنقض على باب سيارته لتنزعه من فوق عجلة القيادة..صوت الباب المعدنى يغلق..سقط..حاول أن يهرب لكن البندقية فى وجهه أخرسته.......

"قوم"

انتفض الرجل و لم يرد..وبدأ يفهم....

"قووم"

وجد نفسه ينهض فى بطء بين الأشباح السوداء..وشعر بالطرف البارد خلف ظهره ثم انبعث الصوت الغليظ من خلف اللثام يهتف:

"قدامى"

ثم سار جسده المرتعش السائب بين الظلال كمواكب الجنائز..لم يكن يرى نهاية الطريق لكنه سمع الصوت الغليظ يهتف:

"واطى"

هنا فهم السائق بصورة كاملة..قفز إلى الخلف لتغوص الذراع الباردة فيه أكثر وصاح:

"(الغريب)؟!"

تعالى الصوت العميق القادر من أعماق أقصى آبار الخوف ليمسك بتلابيب الرجل ويصرخ فيه:

"أنا مش حذرت كل سواقين البلد محدش يسوق عربيات العمدة وينقل غلته بره البلد تانى..أنت مجنون ياض ولا عبيط".

ثم رنت الصفعة لترميه خارج نطاق الرؤية..انتفض الرجل فى مكانه وهو لا يقوى على القيام..قال:

"أكل العيش يا بيه"

تقدم (الغريب) إليه وجذبه من ثوبه المتسخ..ثم قال فى غلّ:

"علشان تاكل أنت عيش تبيح أهل بلدك..وتقبض من الكلب ده..حقيقى مراه"

لكن الغريب لم يكمل..تابعت عيناه الظل القادم فى الظلام يصيح فى ذعر:

"كبسة..كبسة..بوليس"

رمق الغريب السائق الذى انكمش مذعورا حتى ذاب فى الأرض..

"آه يا كلب"

ثم ألقمه قبضة قضت على ما بقى منه وأسرع ورجاله يتلقفون بندقياتهم ليتبادلوا إطلاق النار....

"(أبو الليل) من الناحية دى ، (جابر) من الناحية دى"

ثم اندفع نحو السيارة وفى عقله ارتسمت صورة ثابتة لرفيقه الحاج (محمد)..فرصته الأخيرة أن يختبئ بين ثنايا القرية نفسها هربا من الهجمة الغادرة......

"حاسب يا غريب"

كان هذا أخر ما سمع ولم يستمر تفكيره كثيرا..رصاصة وحيدة كانت كافية كى تقتلعه من مكانه.......

وأظلمت الرؤية.........

***

المكان: نفس المكان مجددا.

الزمان: وقت مقارب.

الحدث: الثالث....

"محمد إبراهيم عبد المنعم"

خطا الرجل الوقور باعتداد إلى داخل ذات الغرفة..عيناه إلى الأعلى وصوت أنفاسه العميقة يرن بين أذان الحضور..الحاج (محمد)

رجل من الثقال فى قريته لكن قلة كانت تعرف علاقته السرية بالغريب..كان لقاءهما صدفة وكانت الصدف مع أمثال الغريب من الهلاك..لكن ملابسات عديدة شاءت لهما فى النهاية أن يتفقا على خصومة واحدة وعدو واحد..تحالف عجيب بين رجل الدين والتقوة وبين رجل الليل الذى يهابه الجميع..فى النهاية اجتمعت الأهداف لا الأشخاص وولدت نتائج....

هكذا وقف الحاج محمد..استجاب للأوامر..ترك أضواء الكاميرا تلطم خده الأول فيفرد لها خده الآخر..لم يكن يعرف شيئا عن مؤامرة العمدة وضابط القرية الشاب (المأمور كما يحبون أن يسموه) لكنه كان واثقا من القصة برمتها حتى لو لم يعش لحظة منها من الداخل.....

كان يعلم كل شئ....

....

"والله ما أنا عارف أودى جمايلك دى فين بس يا جناب المأمور"

يحتسى الشاب قهوته فى ثقة وخيلاء..يضع قدم على أخرى ويقول للعمدة:

"ولا مأمور من اللى كانوا قبلى قدر يعملها..خلصتك من الغريب ورجالته شيلة واحدة..بكده يا عم تقدر تنام وتشخر وتعيش حياتك من أول وجديد..دا الأمر جاه من فوق مش أى كلام..١٠ أحنا مكناش هنقدر عليه لوحدينا"

"ربنا يخليك ليا يا باشا..ما أحنا حبايب برضوا والمصلحة واحدة"

ثم مال عليه وقال بأنفاس ملهوفة:

"كده بقى مش فاضل غيره"

تناول المأمور رشفة أخرى وابتسم..قال:

"الحاج (محمد)..متخفش..مسافة متغدينا كده غدوة حلوة هتكون الأخبار الحلوة جت..إحنا مش هنسيب حد يلعب بره القانون يا عمدة حتى لو كان الحاج محمد نفسه..أمال أيه؟"

لم يصدق السمين نفسه..أخذ نفسا من بين أثقاله وقال:

"الله أكبر"

ثم صاح كالمجنون:

"بت يا (سعاد)..حضرى الغدا لسيدك المأمور يا بت"

***

المكان: نفس المكان..أيضا.

الزمان: وقت لاحق.

الحدث: الرابع....

رفع (جمصان) رأسه ببطء وهو يخطو خطوته الأولى إلى داخل الغرفة..يرفع وجهه الشاب ليرى ظلال الحاضرين بعيون لا تميز

التفاصيل.. لم يفكر..كان السجن بالنسبة له كأى شئ آخر..كانت الحياة بالنسبة له كسطح أملس بلا ملامح وكانت أوجاعه كمن يعيشها شخص آخر..لا يراها ولا تراه..هكذا تحرك كما أشاروا..نفذ الأوامر وسار إلى منتصف الغرفة.....

هناك وقف..وكان يفكر....

....

"أبوك مات يا (جمصان)..أبوك مات"

"حاول تتفاهم مع أعمامك يا (جمصان)..علشان مشكلة الميراث دى تخلص"

"نصيبك البيت وحتة الأرض..أنت هتفترى؟"

"يا بنى مفيش شغل..هتشتغل أيه يعنى بالشهادة اللى معاك؟"

"ممكن تبيع حتة الأرض علشان تدبر معايشك..عمك مستعد يشتريها منك"

"هتعمل ايه يا (جمصان) يا بنى..مفضلش غير البيت"

"مفيش شغل يا بنى..الظروف صعبة اليومين دول..هشغلك ببلاش؟"

كانت كل ذرة فى قلبه تكره أعمامه..لكنه لم يكن يتوقع حين جاء عمه الأكبر يعنفه – من جديد- أنه ولأول مرة سوف يخرج عن سنين صمته ويفقد أعصابه......

يسبه ربما..ينفعل كذلك..لكنه كذلك لم يتوقع أن يرفع فأسه فى وجهه..وأن يضرب كذلك..راحة عجيبة تمتزج ببقايا من خجل وتأنيب غير مقنع للضمير......

دماء..دماء.....

ربما لم يمت..لكن (جمصان) عرف أن هذا كفيل بتوفير المأكل والمشرب له فى غرف الحبس.......

هكذا ترك الفأس راضيا وظل ينتظر.....

***

- المقدمة-

(٢)

وداخل الجدران الرطبة لغرفة الحبس اجتمعت هذه المجموعة غير المتناسقة..منذ اللحظة الأولى انسحب الغريب والحاج (محمد) إلى ركن المكان.. لم يكن أحدا يجرأ على الاقتراب من الأول لذا صار هذا الركن أقرب إلى المحرمات..كان الجميع يخشاه..لكن (جمصان) لم يكن يفعل....

"ممكن سيجارة؟"

حدق (الغريب) فى وجه الشاب بنظرة سامة..لكن الأخير كان كالمخدر طول الوقت.. لم يكن يخاف وكانت طريقة إلقائه للسؤال أقرب ما تكون إلى (التناحة).....

"أنت مين يا شاطر؟"

قالها الغريب وكانت لهجته أقرب إلى تكسير العظام..لكن الحاج (محمد) كان ككل أهل القرية يعرف الكثير عن (جمصان) وقد ساعده كثيرا..لكنه ككل أهل القرية ايضا يعرف ما آل إليه عقله من فرط الضغوط..وكان تدخل الرجل الكريم ليمنع المجزرة فهو كذلك يعرف من يكون الغريب..........

فى النهاية أجلسه الحاج (محمد) معهما بعدما أخبر الغريب هامسا بشئ من خلفيات هذا الحطام..تقبل الغريب ذلك إكراما للحاج (محمد) وكانت قناعاته أن الجلوس مع هذا الصبى هو قمة الكرم والتواضع.....

تكلم الحاج (محمد) كثيرا بينما كان كلام (جمصان) أقل كثيرا..لكن الغريب لم يتكلم إطلاقا..لم يكن غاضبا بل إنه على العكس كان محبا أن يصغى..كان بعيدا عن القرية منذ زمن لذا وجدها فرصة أن يستمع......

كان الأمر كذلك فى البداية..بعدها وجد الغريب فى كلام الشاب ما يسمعه..كان كلامه مزيج من الجنون والعقل وكان يتكلم فى خلفيات لا يعرفها أحد..كلام كبير عن أحوال الناس والفساد والأوضاع التى لا تتغير..بالنسبة للغريب أو حتى للحاج (محمد) كان الفساد فساد العمدة..وكانت أحوال الناس هى أحوال أهل القرية..حتى الظروف كانت فى الأمطار ومواسم الجفاف..لكن الأخير كان يفهم أكثر..كثيرا.....

من هنا بدأ الغريب يتكلم..يسأل..والواقع أنه قد بدأ ينجذب إلى حديث الشاب المقهور ويعترف أن له شخصية محببة وأنه كذلك يفهم الكثير.......

العلم نور..هذا واقع لا ينبغى أن يكره الإعتراف به.......

هكذا صار يطلب الحديث معه فى عفو المقتدر..يقدم السجائر ويحرقها معه..حتى الحاج (محمد) وجد فى الشاب العجيب وقتا يمضى واعترف فى قرارة نفسه أنه لم يكن يعرف الكثير عنه......

هكذا اتسع الركن المعزول ليضم الثلاثة......

لا أحد يتحدث معهم ولا يتحدثون مع أحد.....

فقط فى اليوم الرابع وحين مرض (أبو هاشم) كان أول تعارفه بهذه المجموعة الشاذة.....

ربما لأنه محموم..وربما لأن أحدا لم يعره اهتماما..والمشكلة أن الرجل فى الزنزانة لم يكن ملحوظا على الإطلاق..الجسد النائم للأبد فى ركن المكان..المهم أن أحدا ما كان ليهتم لولا أن مال عليه الحاج (محمد) مرة..عرف أنه مريض ومن جديد عاد إلى شخصية الرجل الكريم..ثمة معركة عنيفة مع الحارس لكى يأخذ الرجل المريض حقه..كلام كثير لكن الجميع كان يعرف من هو الحاج (محمد) حتى الحارس المذعور على الباب.......

فى النهاية ظهر الطبيب لا أحد يعرف من أين جاء..بالطبع لم يكن هائل الاقناع كطبيب لكنه كان المطلوب..ناوله عقارا فى غرفة المأمور ثم أعاده إليهم ومعه شريطان من الدواء.......

بعد يومان صار (أبو هاشم) واحدا منهم..لم يكن هذا يصنع فارقا ضخما و لم يمتعض الغريب كثيرا للرجل الذى لا يتكلم تقريبا......

هكذا -تقريبا- سارت الأمور..وصار هؤلاء الأربعة فى سجن داخل السجن..كان الجميع يرهبون تلك المجموعة المنفرة..رجل الليل والشيخ والمريض وذلك الفتى الأشعس الذى يحاضرهم فى حماس......

قال (جمصان):

"محدش عارف ايه الأسباب..محدش عارف أحنا بقينـــا كـــده ليه..محدش عارف حقه..كله تايه..تايه"

***

هكذا مر يوم..اثنان..ثلاثة..وأيام أخرى.......

ولكن في اليوم الأخير..تمت عملية الهرب.......

كانت عملية من طرف واحد..وكان الجميع يعلم أنهم رحـــال الغريب..في النهاية سجلت الأحداث بطريقة مختلفة..هروب مـــن المستشفى أو ما شابه.. هكذا هرب الأربعة في عباءة الرجل المحترف في ليلة ثم جاءت ليال أخرى لينسى الناس ما حدث..في الحقيقـــة لم تكن هناك رغبة واقعية في العثور عليهم..كلها ملفات تافهة وربما – أيضا- شائكة..هذه الملفات العفنة تؤذي برائحتها من يفتحها مـــن فرط ما تراكمت القذارة تحت غطائها..أسبوع عائم مـــن البحـــث الصوري ثم انغلق الملف تماما.......

على كل حال..انتهت قصة هذه المجموعة المعجبة..كـــان مـــن الواضح أنهم قد اختفوا مع أقرانهم في الجبل..وهي منطقة محرمة مـــا دام الغريب هناك..ومع الوقت تصير هناك أشياء أخـــرى للكـــلام عنها...........

***

- المقدمة-

(٣)

مر ما يقرب من العام على تلك الأحداث القديمة العابرة..........

لم يحتاج الأمر لأكثر من ربع هذه المدة كي يتراجع العمدة عن مخاوفه وينسى الأمر كاملا..هذا ما حدث..كانت بعثات الظلال السوداء تغزو القرية من حين لأخر لتحمل بعض الأشياء إلى الجبل..وكثيرا لتحمل أهل السجناء الثلاثة إلى هناك كي تحميهم..هكذا تأكد الجميع أنهم قد فروا إلى الجبل..لا أحد يخاف من هذا فمن يذهب إلى الجبل عادة لا يعود......

كان هذا كله تقريبا منذ عام ايضا.......

***

الأول.......

الاسم: أبو هاشم هاشم هاشم أبو هاشم

المهنة: فلاح

العمر: تسعة وأربعون عاما

الحالة الاجتماعية: أرمل

مستوى التعليم: الابتدائية

كان الرجل العجوز قد تربع على رمال الجبل..أرخى رأسه الأصلع النحيل وأمثل للقمر يستر ملامح وجهه الشاحبة في عطف..شاربه الكث غارق في العرق كتلابيب أفكاره..وكان شاردا كعادته.......

يقول (أبو هاشم) في إعياء:

"عمري ما كنت أتخيل بعد العمر ده كله إني ألاقي نفسي في الجبل وسط المجرمين وولاد الليل..أنا كبرت والمرض كلني ومش عارف إزاي هعيش اللي فاضل من عمري في المكان ده..وكمان عالة على ولاد الليل..آكل حرام..صحيح هم مهما كان رجالة بس الحرام حرام.."

"الله يسمحه الواد ابني..اللي معنديش غيره..أهو هج مع اللي هجوا على الخليج وولا حس ولا خبر..لو كان موجود مكنتش اتبهدل البهدلة دي..على العموم خلاص حتى لو رجع في يوم من الأيام مفتكرش ممكن يعتزلني على سكة..الله يسترها معاه يبقى مطرح ما راح"

"على العموم خلاص..أنا كده كده صحيح على إيدي وبودع..مش فارقة بقى أعيش الأيام في عشة أو في جبل..كده كده الأرض ضاعت ومعلش عندي اللي يسترني..على الأقل أنا مستور فيهم"

...

الثاني.......

الاسم: الغريب..فقط

المهنة: رجل جبل

العمر: أربعون عاما..تقريبا

الحالة الاجتماعية: لم يتزوج

مستوى التعليم: ....

جلس الغريب على مسافة من الرجل العجوز وشرع ينظف سلاحه العتيق فى اعتزاز..وجهه يختبئ خلف لثامه وفى عينيه نظرات حادة لا تتبدل..حاجبين كثيفين وجبهة مجعدة إلى الأبد..كان منهمكا فى عمله الذى يحب حتى الموت.......

يقول الغريب:

"لو حد فى البلد دى قال إنه يعرفنى يبقى كذاب..أنا نفسى مش فاكر أى حاجة قبل ما جى الجبل..أنا كنت ابن خمستاشر ساعتها ومكنتش لسه بقت الغريب..هربت لأنى مكنتش لاقى آكل..هربت لأن مكانش ليه أهل وضهر يحمونى وكان سهل جدا أبقى عبد ومرمطون للى يوكلنى..سرقت وقتلت وهربت على الجبل..وهنا بقى دراعى هوا اللى يوكلنى وبقى الكل يخاف منى..فى الأول كان ممكن أنهب أى حد..بعدين عرفت مين اللى يتنهب ومين اللى يتساب فى حاله علشان ميبقاش فى يوم من الأيام زى..ويكون ذنبه فى رقبتى"

"بس الكلام ده جاه متأخر قوى..الناس مكنتش فاكرالى غير اللى شفوه منى فى الأول..على العموم مش هتفرق..فى النهاية الناس تخاف منى أحسن متستهيفنى والناس فى بلدنا كده..يا تخاف يا تستهيف..يبقى تخاف أحسن"

"المهم إنى أقدر أحمى نفسى..ويوم ما أقع زى ما وقعت ألاقى ضهر أقوم عليه..وده اللى حصل"

"الغريب مش هيرجع ضعيف تانى..مهما حصل"

...

الثالث.......

الاسم: محمد إبراهيم عبد المنعم

المهنة: فلاح كبير

العمر: خمسة وأربعون عاما

الحالة الاجتماعية: متزوج

مستوى التعليم: الاعدادية

تمدد الرجل المنهك على قطعة ثوب مهللة غطت الرمال الباردة من تحته..افترش الفراغ وأراح وجهه إلى القمر..كانت ملامحه البدينة تشي بكرم صادق وأبوية عميقة..كذا المعاناة..كان كل شئ من حوله لا يصدق..........

يقول الحاج (محمد):

"أنا فعلا تعبت..مش علشان كنت فى وسط بلدى مرتاح وميسور الحال..لأنى فى الأصل متولدتش كده..وياما اتبهدلت وياما صبرت..بس اللى تعبنى بجد إنى اتخدت غدر..أنا مستحقش بعد العمر ده كله إنى أكون فى مكان زى ده..اللى يستحق المكان ده ناس غيرى قعدة ولا على بالها..عملت ايه أنا علشان أهرب ذى المطاريد فى الجبل"

"كتير عليا فى السن ده أهرب واستخبى من الناس وأنا اللى لو غبت يوم كان الكل بيسأل عليا..كان ليا مكانى وهبتى فى بلدى..دلوقت أنا هنا..مستخبى زى الفيران..هربان من أيه؟..مش عارف"

"مكنتش أعرف إن بعد الاحترام والهيبة وسط الناس ممكن انتهى هنا..وأموت وسط الجبل..لا حول ولا قوة إلا بالله..قدر الله وما شاء فعل"

...

الرابع.......

الاسم: بهانة الأسود هريدى

المهنة: ست بيت

العمر: ثلاثة وثلاثون عاما

الحالة الاجتماعية: زوجة الحاج (محمد)

مستوى التعليم: ....

دخلت السيدة الطيبة وسط الكهف الصغير متسترة بغطاء واسع..جلست بجوار النار..وجهها البدين كوجه طفل فى المهد..حنون لكنه لا يقوى على الحزن..كنت تراقب الرجال من بعيد و لم تكن تتكلم..فقط تتنفس فى توتر.....

تقول (هانة):

"أنا اتجوزت الحاج محمد من زمان..طبعا أنا كنت عيلة ومكانش ليا رأى بس لو كانوا سألونى كنت طبعا وافقت..طول عمر الحاج محمد صيته فى البلد إنه راجل محترم وملوى هدومه..وبصراحة لما عشرته عرفت قد ايه هى حنين وطيب..فعلا أنا ربنا كرمنى بيه"

"حاجة واحدة كانت بتعكنن عليا بس عمرى ماكنت أرضى أكلمه فيها وأزعله..هى حكاية أن وقت كله ضايع مع الناس..البيت مش بيفضى..بس أنا عارفة كويس إن الناس بتحبه وتحترمه ودى حاجة تفرحنى..علشان كده مكنتش بكلمه فى الموضوع ده نهائى"

"كان أسود يوم فى عمرى يوم ماخدوا رجلى منى..واتسجن..أنا عارفة إن العمدة المفترى أكيد ورا القصة دى بس مكنتش عارفة أعمل ايه..ومصدقتش نفسى لما عرفت إنه هرب..فى الآخر جم شوية رجال الله يسترهم دلونى على مكانه"

"مين كان يصدق إن بيت العز بيت الحاج (محمد) ينتهى بيه الحال كده..منك لله ياللى كنت السبب..بس فى النهاية ده جوزى..والست ورا رجلها مهما يتبدل بيه الحال..وربنا كريم"

...

الخامس.......

الاسم: جمصان جمعة

المهنة: عاطل..يهوى التكنولوجيا وكتابة الشعر..والسياسة وأشياء أخرى..ويلعب دور المثقف فى بلد لا تعرف شيئا عن الثقافة

العمر: خمسة وعشرون عاما

الحالة الاجتماعية: أعذب

مستوى التعليم: ثانوية عامة..أكثر أو أقل لا توجد معلومة أكيدة.

كان نحيفا كما ينبغى أن تكون النحافة..شعره كثيف مجعد وعيناه غائرتان بين ملامح وجهه المغبرة..كانت السيجارة فى فمه وقد جلس فى منتصف المجلس بين الناس..هكذا كان يفعل كل مساء....

يقول (جمصان):

"أنا عشت عمرى كله فى البلد دى..محدش سمعلنا حس ولا أحنا سمعنا من الناس حس..لحد ما أبويا مات..ساعتها بس أفتكرونى

لزوم الجدعانة..طبعا طبطبوا عليا لحد ما كتفى اتخلع وعيطولى بضمير وقالولى شد حيلك يا بنى..عمامى عملوا كده برضوه وفى الآخر خدوا الأرض..بعدها طبعا الناس نسيتنى تانى وأنا نسيتهم..اتبهدلت علشان ألاقى لقمة العيش..وطبعا سبت التعليم..ودى كانت فعلا النهاية لواحد زى".

"أخرتها بقيت هنا..مش مهم ازاى..دى نهاية طبيعية لعيشة بنى آدم زيّ..بنى أدم منقرض..مش مهم".

"فى الآخر كله محصل بعضه"

***

فى ليلة باردة عاد إليهم بعض رجال الجبل بالمؤن والسجائر كعادتهم..هكذا جلس (جمصان) وسط الناس وتناول سيجارة..جلس الغريب بجواره ثم جاء أحد الرجال وأشعل النار أمامهم بمعرفة سابقة أن السهرة قد بدأت..مادام الغريب و(جمصان) فى نفس المكان فإن الحديث سوف يبدأ..بعد دقائق تجتمع الوجوه الباقية تدريجيا ليتبادلوا الحديث حول أى شئ..كان هذا ما يحدث كل يوم......

قال (جمصان):

"رغم إن الحياة هنا صعبة بس هو ده اللى بيعمل الرجالة..كمان البعد عن الناس غنيمة"

"ولا أيه يا عم (أبو هاشم)؟"

انتفض (أبو هاشم) كمن كان يحلم..ضحك (الغريب) ضحكة قصيرة وقال:

"أيه يا عم (أبو هاشم)؟..فينك؟"

"سرحت حبتين"

لم يسأله أحد..و ظل هو يحدق فى النيران التى أنارت عينيه حتى كادت صورته أن تعكس عليها..أجاب بلا سؤال:

"لحد أمتى هنفضل كده؟..عايشين زى الفيران فى الجحر..كل اللى نعرفه عن الدنيا بنعرفه من الرجالة اللى بتنزل للبلد من وقت للتانى..غير كدا أحنا أموات"

قال الحاج (محمد):

"يا سيدى مش أحسن من السجن والبهدلة.."

قال (جمصان):

"ثم يا حاج أنت عايز ايه من البلد..أنت مقطوع من شجرة..ايه اللى ممكن يربطك غير أهلك؟..غير كده الجبل والبلد واحد"

"عايز ترجع لأيه؟..ولمين؟..البلد معدتش بلدك يا عم (أبو هاشم)"

"أزاى الكلام ده بس يا بنى؟"

اعتدل (جمصان) ليبدأ حديثه المطول لكل ليلة:

"يا عم (أبو هاشم)..من ثلاثين سنة أيام ما كنت أنت فى عزك يمكن كانت البلد فعلا بلدكم..بس دلوقت خلاص..فيه العمدة والمأمور..فيه عضو مجلس شعب وشورى وعضو الحزب..فيه أصحاب أراضى وعقارات.دول هم اللى البلد بلدهم يا عم (أبو هاشم)..أنت ترتيبك متأخر قوى"

ضحك (أبو هاشم) وقال:

"ما هو على كلامك ده يا بنى يبقى عمرها ما كانت بلدى..زمان وأنا صغير كنت أسمع عن البشاوات وأصحاب السرايات..بعد كده بقى فيه حاجة اسمها رجالة الحكومة..بعد كده أصحاب الأراضى والحزب وناس كده..مش معنى كده إن البلد دى مش بلدى..كله بيروح وييجى وأنا اللى قاعد يا بنى..أنا الأصل حتى لو تحت الأرض".

قال الحاج (محمد):

"المشكلة أنهم زى ما أنت قلت..بيروحوا وييجوا لكن عمرهم ما بيختفوا..بس دا حال الدنيا كلها..ربنا خلق الناس درجات..وفى كل حتة فى الدنيا فيه اللى بيملك واللى معندوش..ولا ايه يا (جمصان) يا بنى؟"

احتد (جمصان) وقال:

"ممكن..بس مينفعش يكون. المسئول. اللى بيأخد مرتبه علشان يشوف مصلحتك حاله كده..وأنتم حالك كده.. أكلك وشربك وفلوسك وصحتك كده..وهو أكله وشربه وفلوسه كده..وبيعاملك كده وبيتحكم فيك كده..لدرجة إنك بتكرهه وتتمنى إنه يزول..بس مش بمزاجك..بيفضل برضوه فوق رقبتك..فكرك ده بحصل فى الدنيا كلها ؟"

قال الحاج (محمد):

"لأن الناس بتخاف..وهتفضل تخاف يا بنى..الناس بتشتكى بصوت واطى وبتدور على حد يجيلها حقها..حد مين محدش عارف؟"

تكلم (الغريب):

"كل الناس بتخاف..ويوم ما شعرهم يبيض يرجعوا يسألوا نفسهم هم فضلوا عمرهم كله خايفين من ايه"

قال (جمصان) وهو يحدق:

"فى النهاية الناس كلها مستنية فارس..مستنية حد من عالم تانى..حد عظيم مفهوش عيب..هوا اللى يفكر ويحارب ويجمع الناس وهما عليهم يجروا وراه ويهتفوله..وينفذوا أوامره وأفكاره..الفارس فى نظر الناس هو الجنى اللى هيحل كل المشاكل فى غمضة عين".

قال الحاج (محمد):

"كل زمن وليه فارس..ايه المشكلة؟..بس المهم يكون فعلا فارس..وأن اللى يمشوا وراه يكونوا فعلا فرسان..مش العدد فى الليمون"

أشار له (جمصان) وأعقب:

"عارف يا حاج (محمد)..وأنا صغير كان فيه انتخابات مجلس شعب..كان أول مرة يترشح فيها (حمدى) بيه ضد (زكى) بيه اللى كان هو العضو ساعتها..الناس كانت بتكره (زكى) بيه طبعا بس أنا مكنتش فاهم هما ليه كانوا بيحبوا (حمدى) ده..الناس مشيت وراه وكان عيال البلد دايما يقولولى إنه باين عليه راجل طيب..راجل كويس..واهوا أحسن من (زكى)..مع إننا كنا أول مرة نشوفه لكن الناس كانت فعلا بتكره (زكى) ده..(حمدى) قال إنه مختلف والناس طبعا كانت عايزة تصدق..نفسها تصدق إنه فعلا الفارس..أدى الحكاية..وفى الآخر (حمدى) بيه اللى فاز..فاز بالناس أو علشان كان هو مرشح الحزب مش مهم..المهم إننا كلنا عارفين إن (حمدى) ده طلع أظلم وأضل سبيلا..وأديه قاعد..دول فرسان الزمان ده".

قال أبو هاشم وهو يسعل:

"مفيش حاجة أسمها فارس..بتاع أيه هيحلنا بيه من البهوات علشان يحللنا مشكلنا؟..وعلشان أيه؟..علشان يا حرام صعبانين عليه..الحقيقة إن الناس دى بتأخد مننا مش بتدينا..فى كم واحد ممكن يدافع عن حقك وينيلك من غير ما يكون تمن ده كرسى من الكراسى؟..وكرسى يكسبه كويس قوى كمان..مين ممكن يعمل ده لوجه الله؟".

يقول الحاج محمد:

"برضوه فى ناس بتعمل لوجه الله يا أبو هاشم".

قال جمصان:

"وبتكشف فى الآخر إنهم بيدفعوا عن حقنا علشان يخبطوا فى ناس تانية..واحيانا علشان يتشافوا ويخشوا فى الدايرة".

"يا عم جمصان أنت بتقول كلام كبير قوى..أنت بتجيبوه منين".

ابتسم جمصان فى مرارة و لم يرد......

***

فى الليلة التالية تواصل الحديث......

جمصان جالسا وبجواره الجمع..كان يقول:

"أحنا مفيش حد حاسس بينا هنا..إحنا بالنسبة للناس عوالة..مصدر مشاكل..جهل فقر ومرض وانفجار سكانى..أنا

متهيألى الأماكن النائية اللى زينا كثير من المسئولين بيحلموا أنها تزول من الخريطة..بيحسوا إن ملاليمهم بتترمى فى الأرض لما يصرفوها علينا".

الجميع يهزون رؤوسهم فى اقتناع.....

***

فى اليوم التالى قال جمصان:

"أنت أيه فرصتك فى العيشة هنا..هتعيش وتموت جاهل..من غير طموح..ممكن تسافر تعملك قرشين وتعيش تتفشخر بيهم على أهل بلدك..لكن أكثر من كده أيه..دا أنت أما بتسافر بره البلد لحتة فيها شوارع أسفلت بتعتبر إنك سفرت للخارج..احنا برا حسبة الأكابر خالص".

"صح والله".

***

فى اليوم التالى كان رجال الجبل قد أحاطوا بجمصان كمؤتمر انتخابى..!!

"عمرك ما شوفت نظرة الناس فى المدينة لك لو سفرت بجلبيتك دى هنا ولا هنا لما يعرفوا إنك فلاح..يقولولك إنك عبيط وجاي من ورا الجاموسة..لو كنت جاهل فلأن القرش اللى بيستخسروا الكبار يصرفوه عليك بيتصرف عليهم..وبعد كدا نشتكى إن الغرب بيضطهدنا..أما أحنا أهو بنتضهد نفسنا".

فى اليوم التالى سأل الحاج محمد:

"وأمتى الوضع ده هيتغير؟".

"عمره ما هيتغير..حتى لو أتغير فى الدنيا كلها التغيير عمره ما هيوصلك لأن الناس مش شايفاك أساسا..بالعكس الوضع هيبقى أسوأ..هيكون الناس فى الأماكن النضيفة بيعلموا أولادهم فى أحسن مدارس وبيربوهم على الكمبيوتر والانترنت وأنتوا هنا أقرب مدرسة على بعد اتنين كيلو..يعنى يا تطلع عينك علشان تودى ابنك مدرسة فى أخر الدنيا ويا عالم بحالها علشان ابنك يتعلم أى تعليم وخالص يا يفيض بيك وتقول بلاها علام..ساعتها هتكون بتزود عدد الجهلة فى البلد".

يمصص أبو الليل شفتيه ويقول:

"وساعتها إعلانات التلفزيون مش هترحمنا".

***

فى اليوم التالى قال جمصان:

"المشكلة إنهم مش عارفين الحقيقة..وأحنا كمان مش حاسين بقيمتنا..أحنا عندنا رجالة تفوت فى الحديد..جدعنة وأصالة وشرف..وفوق كده عندنا أسلحة أكثر من اللى فى وزارة الداخلية!!!..ومع ذلك راضين بالعيشة دى".

ضحك الغريب..وهو نادرا ما يفعل...

"والله بيتكلم صح".

***

فى اليوم التالى كانت العصبية هى السائدة..كان الأحساس العام هو الغضب من هذا الوضع الذى لا ينتهى....

و لم يجتمعوا هذه الليلة....

***

فى اليوم التالى لم يجتمع أحد أيضا..كان جمصان يسند ظهره على الحائط الصخرى ويفكر بعمق..يحسب أشياء ويخطط على الرمال..لم يكن مستعدا للحديث وهكذا لاحظ الناس فلم يتحدث إليه أحد....

***

بالمثل..فى اليوم التالى.....

***

فى اليوم الذى يليه كان جمصان قد انتهى..كان متحمسا وكان حريصا على جلسة كل يوم.....

"أحنا مش هنستنى فرسان يا أخوانا..أحنا اللى هنكون الفرسان..وهنعلم العالم كله".

"يعنى أيه يا بنى الكلام ده".

انطلق جمصان فى الكلام وهو يؤدى كممثل مسرحى..وقف بجوار النار حتى بدأ كالعملاق..أنظار الحشد عليه وهو يقول:

"أحنا أهو قدام الدنيا كلها..ناس عايشة فى الجبل على حدود قرية ملهاش وجود..فرصة أغلبيتنا فى التعليم كانت ضعيفة..لكننا

أقوى بكثير من أى حد ونقدر نرفض أوضعنا ونغيرها..أحنا مش عالة بالعكس..أحنا ممكن نغير التاريخ".

"يعنى ايه الكلام ده؟"

قالها أبو الليل متعجبا....

"يعنى أحنا هناخد رجالتنا ومالنا وحلنا ونتزل رفعين السلاح فى البلد".

قاطعه الغريب:

"هنحارب الحكومة ولا أيه؟"

"بالظبط كده".

قالها جمصان فى حماس وأردف:

"مش بس المأمور..أحنا هنجمع معانا كل رجالة الجبل..هنوصل لكل جحر مستخبى فيه حد طفح من العيشة..هنتزل بالسلاح..وهنحارب لحد ما نمسك البلد كلها"

نظرات ذاهلة...

"وبعدها"

"هى لسه فيها بعدها؟!".

"بعدها هنطلع مع البلاد اللى حولينا لحد ما نوصل للمدينة..ممكن يسموه انقلاب لكن أنا هأسميه ثورة ويوم ما هندخلها هتكون دى حدود بلدنا الجديدة..جمهورية شولاط".

نفس النظرات الذاهلة..ثم تكلم أبو الليل:

"روح يا جمصان نام شكلك تقلت فى الشرب".

"شرب أيه؟"

"شرب أى حاجة..ما أنت أكيد لقيت حاجة تشربها فى الصحرا دى".

"عيب يا أبو الليل مش كده".

قالها الحاج محمد ثم استدار لجمصان وقال:

"أيوه يا بنى بس ده كلام خيالى قوى".

ثم قال الغريب:

"والله الكلام ده خش نفوخى..أنا حبيت الحكاية دى..بس برضوه أنا مع الحاج محمد..دى وسعت منك قوى يا جمصان".

هتف جمصان فى حماس:

"يا جماعة لا وسعت ولا حاجة..أنا حاسب كل حاجة بالملى..أحنا فعلا نقدر نجهز عدد كبير من الرجالة والأسلحة..كله هنا قلبه ميت ومش خايف على حاجة..والقوة الحقيقية فى السرعة والمفاجأة..الكلام ده كله ممكن يتعمل فى نص ساعة".

"يا شيخ؟".

هكذا بدأ الناس فى الانسحاب من حول النار كلا إلى مكان نومه..تنهد جمصان لكنه لم يستسلم.....

وعاد بمزيد من التفكير.....

***

فى اليوم التالى أصر جمصان على فرصة ليشرح خطته.....

كان ناجحا فى طريقة عرضه..قويا فى شخصيته وكنت العقول من حوله أضعف منه كثيرا..هكذا استمعوا إليه إلى النهاية وقد أصابتهم الحيرة....

"أفتكروا كلامى كويس..عيشة الجبل مفيش فيها رجوع..وهتتحكم عليكم لآخر العمر مفيش كلام..معندكوش حاجة تخسروها..وأحنا لا عيل ولا تيل".. هكذا سادت حالة من الصمت وبدأت الأصوات تتعالى على استحياء.....

***

فى خلال أسبوع كان جمصان قد كسب معركته..لم يكن يصدق لكنه تعامل مع الموقف فى سرعة..وبدأ حديثا مطولا مع الحاج محمد والغريب......

كانت الشمس قد أوشكت على الشروق حين فرغ جمصان من كلامه...

وكان راضيا للغاية.....

***

الهوجة

(شؤلاط.حكاية بلد مش ع الخريطة)

(١)

عادة ما يأتى الصباح ساكنا كصفحة المياه فى مثل تلك القرى الصغيرة..نشيط لا شك لكنه هادئ..عادة ما يفكر الناس حين يأتيهم النهار فيما يحمله يومهم هذا من تقلبات القدر..يحدث فى كل مكان لكنه عادة لا يحدث بين ثنايا هذا البلد الساكن..لا أحد يفكر أو يبحث عن شئ لا يتوقعه وعادة ما تصدق توقعاته..فقط يفاجئهم الموت أحيانا فيبكون بجنون ويشقون الجيوب أو تأتيهم لحظات الميلاد بالفرح الأحمق حين تصير..هى أشياء يمتص الدفء صعوبتها ويعظم حضن الناس محنتها..فى النهاية تبقى حقيقة أن فى هذا منبع السكينة وثقل خطوات هؤلاء القوم..هذا باختصار هو صباح هذا اليوم وكل صباح........

فقط لم تمتد القوانين هنا لأحضان الجبل..ولم ينم أحد بعد ليلة الأمس الطويلة..كان الغريب فى المقدمة وإلى جواره أبو الليل وكانا منهكين فى إعداد كل شئ.. بينما بقى الآخرون تحت أمر جمصان ورجلى الجبل......

كانت الشمس قد بدأت رحلتها ككل يوم حين انهى الرجال استعدادهم بالفعل..تسربت بعض العناصر من قلب الجبل لتتوزع فى نقاط معينة بعيدة وخلفهم تحرك السلاح..على القمة كان جمصان..يراقب كل شئ فى توتر ويتحرك كالطيف بين المهرولين هنا وهناك..تنهكه أفكاره فيجلس على صخرة ويلتقط أنفاسه من بين شقوق السماء لتحرق صدره..كان الحاج محمد بجواره وقد صار عجوزا جدا.....

"يا بنى أنت مصدق إن ده ممكن ينفع..دا خيال"

يهز الشاب رأسه....

"هيحصل..هيحصل لأننا بعيد جدا عن الأماكن اللى بيعيش فيها الناس..الناس اللى بيعتبروهم ناس..أحنا منبوذين فى الجبل..منبوذين فى البلد كلها..وعقبال مايخدوا خبر ويتحركوا هيكون كل شئ تحت أيدينا"

"والشرطة؟"

"كلنا عارفين إن مفيش حكومة دخلت بلدنا تقدر على الجبل ولا على رجالته والسلاح اللى معاهم..أما شرطة المركز فالغريب واللى معاه مظبطين أكثر من نص رجالتهم وفى بينهم كلمة ومصالح..هنلعب على ده علشان نخدرهم شوية ونكسب وقت لحد ما نوصل"

أخرج الحاج محمد أنفاسا محترقا من صدره..فكر ثم عاود السؤال:

"والمحافظة؟"

"السلاح كثير والرجالة أكثر..ثم أحنا محافظة مسلمة محدش بيسأل عليها أو بيخاف منها..يعنى الأمن مريح ومش جاهز لحاجة زى كده..وأحنا محتاجين مجرد دقايق..متخفش"

"مخفش؟..دا كلها كام يوم يا بنى والبلد كلها هتتقلب علينا"

استدار (جمصان) برأسه فى بطء..ابتسم ضاغطا على حروف جملته:

"ساعتها هيجى دور اللعب على الأعصاب..التلميح بحاجات ممكن تخوفهم وتربك حساباتهم..متخفش..أنا عارف كويس أنا بأعمل ايه"

ثم نهض من جلسته وتنازل أمثاراً للأمام وقد تناسى رفيقه الجالس..اندفع وقد استرد رجته ... الرجال يحثهم على الحركة..بدا كمجرم قديم بينهم....

"أنت مش خايف؟..أنت بتعمل كده ليه؟"

أتاه صوت الحاج (محمد) فرد الشاب دون أن ينظر:

"أنا مش خايف يا حاج (محمد)..مش علشان أنا أسد لكن لأن معنديش حاجة أخسرها ..معنديش حد أبكى عليه أو يبكى علي..يا حاج (محمد) أنا عارف الناس اللى تحت الجبل كويس وعارف نفهى بينهم..عارف قد ايه إنهم غلابة وأنا أغلب واحد فيهم..بس أنا عارف أكتر منهم هم ممكن يبقوا ايه..هم فاكرين إن الدنيا أخرها كده وإن مفيش أحسن من اللى هم عايشينه..حتى اللى عارف ميقدرش يعمل حاجة..كله خايف..خايف على نفسه وأهله وأكل عيشه..مفيش غير واحد زي حالاتي هو اللي ممكن يعمل الحاجة اللى كل الناس عايز تعملها ومش قدرة..مش لأنى أحسن واحد لكن لأن مفيش عندى حاجة أضيعها..حتى الحرية ضاعت"

"والغريب؟"

صمت (جمصان) لبرهة.....

"الله أعلم بيه..بس الأكيد إنه زهق من لعبة الجبل ونفسه يورى وشه للناس..نفسه يعيش زى البنى آدمين"

ثم استدار إلى الحاج (محمد) وابتسم فى مرارة..بدا وكأنه يسأل..هكذا رد الرجل وقد أعياه القلق:

"مش عارف..قلبى بيقول إنكم صح..ربنا يستر".

ابتسم (جمصان) راضيا ثم قال:

"ببركة دعاك يا رجل يا طيب"

ثم واصل ما كان يفعل وانصرف الرجل معه.....

***

الشمس توشك على الظهور من خلف الأسوار الباهتة..يسير الغريب حاملا ظله الضخم أمام قدميه حتى وصل إلى حدود (جمصان) الذى أنهمك فيما هو فيه..قال له بصوت قوي:

"الرجالة فى البلاد الثلاثة اللى حولينا أدونا الإشارة بأن كله تمام عندهم..(أبو الليل) كمان وصل لحدود المركز وفرش رجالته وسط الزرع مستنى الإشارة"

"وبالنسبة ل(ضاحى)؟"

"(ضاحى) رجل جبل عتيق..وأحنا محتجين له..من حسن الحظ إن فى رقبته جمايل كتير لىّ هيردها من غير سؤال أو مقابل..وقوة الراجل ده هتغطى أماكن واسعة بعيدة عن أيدينا..هو لحد دلوقت عندى كلمته من غير سؤال"

"يبقى أنت هتكون على رأس رجالتك وأنا والحاج (محمد) هنكون معاكم فى البداية..لحد ما نوصل بيت العمدة..هيفضل الحاج (محمد) هناك علشان يسيطر على أهل البلد..الناس بتثق فى الحاج (محمد) وهتسمعه..أنا هأكمل معاك لحد محطة الإذاعة..أهم حاجة اللى يقع تحت أيد الرجالة يخدوه..هنحتاج كل حاجة".

"وجودك معانا خطر عليك..بس ده شر لابد منه"

مهرولا يأتى (أبو الليل) قادما من اللا مكان..يبتلع ريقه ويقول من بين أنفاسه اللاهثة:

"الرجالة مستنينك يا كبير..وعلى أمر منك"

يرى (جمصان) الحاج (محمد) وقد فرغ من صلاته فى ذلك المكان البعيد الذى حوله الرجل لركن يتعبد فيه..اتجه نحوه فى حين أشار الغريب إلى (أبو الليل) كى يتبعه..من بعيد يتعالى السعال المجروح فيعرف الجمع أنه ولا شك (أبو هاشم)..يتحرك من جحره قادما نحوهم..هكذا توقف له الحاج (محمد) وتعالى صوت حنجرته يستحثه:

"ياله يا (أبو هاشم)..أمر الله نفذ..هتقدر تكون معانا"

"أنا صحيح حديد"

كان يكابر كما يفعل دائما..لكن الوقت لم يكن يسمح بالكثير أو القليل من المماطلة..أشفق الحاج (محمد) على عظامه لكنه أخبره بالترتيب فى عجل.....

من بعيد وقف (جمصان) والهواء اللافح يضرب روحه..أطال النظر إلى الجموع الهائلة وصناديق الذخيرة التي لا تحصى تحت أقدامها..على السيارات التي دارت فى انتظار الكلمة..جيش كامل يتحرك تحت الظل لكنه لم يتطلع يوما لغير النهب..اليوم جاء من يحسن قيادته..أخذ نفسا طويلا كقبلة الحياة ثم استدار إلى الغريب الواقف كالصخرة وقال:

"على بركة الله"

ثم تناول سلاحا من جانبه........

***

الساعة السادسة صباحا......

فى البداية بدا للقرية الصغيرة وكأن زلزلا قد هز أوصالها العجوز..بعد برهة استطاعوا أن يميزوا بين الوجوه المندفعة ملامح رجال الغريب..أصابهم الفزع..لم يفهموا سر هذه الأعداد المهولة وهذا التسليح وسيارات النقل..كذلك ظهورهم فى النهار..من ثم أنقبضت قلوب الجميع وهرولوا إلى منازلهم محتمين وقد توقعوا الأسوأ..وحين انتشر الرجال فى أركان القرية ورفعوا السلاح أمرين الجميع الالتزام ببيوتهم أدرك الجميع فى ذعر أن مذبحة ثأر من تلك التي تشهدها القرية من حين لأخر على وشك الحدوث..لكن ما علاقة الغريب بالثأر..وهل يحتاج الثأر لهذه الترسانة!!!

فر الجميع فى ذعر هستيري فى لمحة بصر وتركوا القرية كالبساط..هكذا اتخذت فرقة طريقها نحو مركز الشرطة وأخرى نحو دوار العمدة.....

يرفع الغريب مدفعه ليبعثر الرصاص فى الهواء..يصرخ بصوت ملتهب:

"هنا قبركم يا كلاب"

***

الساعة السادسة والنصف....

انتهت الدقائق الدامية بسرعة البرق..تعالى صراخ الناس من كل مكان خلف حوائط المنازل غير الآمنة وهم يرددون الدعاء ويصلون فى فزع وقد تبعثر صوت طلقات النار من حولهم..لم يكن أحدهم يتعدى حدود الجهل فى الإدراك لكنهم كانوا على يقين بأن الأمر هذه المرة يختلف..كان (عوض) أحد أبناء القرية وكان يملك كل الشجاع كى يختلس نظرة من خلف النافذة..هكذا عرف أن جثة العمدة قد ألقيت أمام داره وأن قسم الشرطة قد احترق وأن عددا غير هين من الجثث قد أحاطه كالسور..صرخ مذهولا وعاد يختبئ من جديد..هكذا انتهت المهمة القاسية واندفعت الجموع المقاتلة وعلى رأسها الغريب تغادر القرية تاركة خلفها الحاج (محمد) وعدد محدود من الرجال كى يؤدوا دورهم..هكذا سار الرجل حتى توسط القرية وصاح من فوق جواده ورجاله يحملون الأجساد المتكومة على الأرض:

"يا بلد..أنا الحاج (محمد)..أسمعونى..متخفوش محدش هيتعرض لكم"

هكذا بدأت الرؤوس تطل مرتجفة من خلف النوافذ..كانت قلوبهم تثق بالرجل لكن الأمر كله كان بالنسبة لهم لحظة من الجنون....

واصل هو:

"أنتوا عارفين أنا مين..وأنا بقولكم إنكم فى أمان..لو مش فاهمين اللى حصل النهاردة أنا هقولكم"

ثم سحب اللجام ليحرك حصانه وأكمل:

"احنا شلنا عنكم هم إنكم تقولوا لأ..جينا من الجبل علشان نرفع الظلم اللى أنتوا بتتنفسوه من سنين..لدرجة إن أولادكم نفسهم معدوش عارفين إن ده ظلم.."

"احنا جينا نرجعكم أسياد من جديد..جينا نرجعكلم حقوقكم ونعيشكم العيشة اللى تستحقوها..خير بلدكم مش هيروح لحد - مهما كان - غيركم..فى اللحظة دى رجالتنا فى كل حتة بينضفوا البلد من كلابها..وفى ساعات هتكون المحافظة كلها بتاعتنا..خلاص يا رجالة..من النهاردة هتكون بلدنا زى التلفزيون..ويمكن أحلى"

هكذا تعالى التهليل الطيب وبعض التصفيق غير المنظم..يفهم أو لا يفهم لكنه يؤيد..تأييد جبان بعض الشئ..كان صوت الحج (محمد) عاليا لكن صوت السلاح كان بالطبع أعلى....

والآن.....

كانت جيوش (الغريب) الزاحفة كالزئبق إلى القرى المجاورة تمر بقرية فالأخرى فتجدها خرابا..ثم تنضم الجيوش الصغيرة المخربة إلى

الجيش الكبير لتصنع جيشا أكبر..عند نهاية الطريق ظهر الجيش الأعظم..جيش (ضاحى) وقد أدى ما عليه..عمليات متتابعة على القرى الصغيرة لم تصل بعد إلى مسامع الكبار فى هذه الساعات المبكرة..هكذا ألتأمت الجموع فى اتجاه المدينة..كنت الحشد الضخم الآن أكبر من ألا يلاحظه أحد.....

هنا بدأ (جمصان) مرتجفا يتحدث وسط الناس وإلى جواره الغريب..كان الرجال قد صاروا فى قمة النشوة..كل هذا القتال وهذا البطش..لحظات متعة ما كانوا ليحلموا بها أبدا مهما كان المقابل..كانوا كالسكارى.....

"(مصطفى)..خد رجالتك وعلى محطة التلفزيون..(ضاحى)..رجالتك على مديرية الأمن وخد معاك (أبو الليل) وخدوا معاكم العربيات والقنابل وكل اللى نجبتوه.. (أبو الليل) ورجالته هيحتلوا محطة القطر وبعدها هيخدوا المصالح الحكومية واحدة ورا التانية"

هكذا أطلق الغريب صيحته ليفَعل الأحلام:

"ياله يا رجالة..البلد بتاعتنا".

ثم أنتشر السواد فى طرق المدينة التى بالكاد استيقظت..فقط لتثير من الدهشة بأكثر مما أثارت من الذعر..الوجوه السوداء داخل السيارات وخلفها أعداد ضخمة من الرجال فوق الخيول..مشهد سينمائى عجيب لكنه منفر..هكذا تراجع الناس من أمامهم و لم يجرأ أحد على اعتراض هذه المسيرة المظلمة.....

وأمام محطة البث المحلية تراجع أفراد الأمن البائسين فى ذعر..حاولوا تحليل راتبهم لكن قنبلة دخان أراحت ضمائرهم..لم تفت ثوان إلا والجميع بداخل المبنى..بقت مجموعة صغيرة يرأسها (جمصان) بينما أنسال الباقون لمساعدة (ضاحى).....

بداخل المبنى وقف (جمصان) حاملا سلاحه..لا يصدق ما يحدث..لكنه منفعل..منفعل ومتحمس......

"طلعنى على الهوا"

قالها (جمصان) فاندفع مخلص من القوم رافعا سلاحه نحو العاملين القابعين فى ركن القاعة كالدجاج وصاح فى غلظة:

"(جمصان) بيه بيقولكم طلعوه على الهوا..بسرعة لفجر دمغاتكم"

تقدم نحوهم شاب يرتجف وقال وهو لا يقوى على النهوض:

"يا باشا والله تحت أمرك بس أنا منصحكش"

"ليه؟"

"يا بيه أحنا قناة محلية..يعنى مفيش غير المدام والأولاد بيتفرجوا عليها..إهدار مال عام يعنى..لو فيه حاجة عايز تقولها للمدام والأولاد قولهالى وأنا أوصلهلم ومتتعبش نفسك حضرتك..أكثر من كده أحنا مش هنفيدك"

"مش شغلك..طلعنى على الهوا"

ارتجف الرجل وهو يرى السلاح فى وجهه..قال من بين أنفاسه:

"اللى تشوفه حضرتك"

ثم أشار إلى فريقه وتحرك معهم فى حذر..بينما لم يغادر السلاح مجال رؤوسهم قط....

***

"أيها الناس..أبناء هذه المحافظة الكريمة..اليوم يوم مجيد..عظيم..كبير..بالنسبة لكم جميعا..بعد احتلال غاشم دام الآلاف السنين من قوى عديدة تتابعت على هذا البلد..اليوم واليوم فقط يتغير التاريخ..يتحور ويتحمل ويعود إلى رشده..اليوم واليوم فقط صارت هذه المحافظة الطيبة فى مكانها الطبيعى..من اليوم أعلنها جمهورية..جمهورية..جمهورية"

"أيها الناس..هذه الخطوة العظيمة التى دفعنا ثمنها من العرق والدم..هذه الخطوة التى تأخرت كثيرا لأن أحدا لم يجرأ على أن يفعلها..الآن صارت واقعا صادقا نراه بدماء الأبطال..الآن صار الخير كله لكم..لن يسرق ولن ينهب..والأهم..لن تكونوا أقل من العواصم والمدن الكبرى..لن تهمشوا ولن تكونوا فى الظل..أنتم الآن دولة لها كيان..وقيمة..مبارك عليكم أيها الشعب العظيم"

كان (حمزة) شابا من طبقة المطحونين..دفعته صدفته أن يشاهد هذا الهراء..ربما كان الوحيد.....

"هو الراجل ده بيقول أيه؟..أنا أيه اللى خلانى أجيب القناة الواقعة دى"

"المسلسل يا حيوان..هات القناة اللى عليها المسلسل"

***

لم يشاهد (جمصان) بجزرة الأمن..لكنها أنهى الأرسال وظل هناك يرتجف فى انتظار الإشارة......

كان أخاه الصغير فى ذهنه..ذلك الطفل المنتظر فى الجبل..لكن العملية كانت فى ذهنه أكثر..جسده يشتعل بالحماس والخوف حتى أحمرت مقلتيه..لا يستطيع أن يكبح عقله المجنون.....

أنهى الإرسال وبقى ينتظر بين رجاله.......

وحين جاءته إشارة النجاح لم يصدق..إشارة انتهاء معركة الأمن واحتلال مبنى المحافظة...

ثوان ثم تم احتلال المداخل.....

يتعالى الهتاف المتحمس وتتصاعد أصوات الحناجر..الآن يتماسك (جمصان) من الدوار المحيط برأسه..يرتجف ويعدو كالمجنون..يصيح فى رجاله ثم فى المخرج كى يظهره على الهواء..حتى المخرج أصابته حمى الحماس وقد شعر للحظة بمنتهى الأهمية المفتقدة..يعدو هنا وهناك ويلقى أوامره.....

"مبروك يا باشا..ربنا يجعل عتبتها فتحة خير عليك إن شاء الله"

ثم يشير إليه كى يتكلم من خلف الكاميرا..يتوسط (جمصان) بمقعده ويقول بصوت مرتجف وقد تدفقت الدماء فى وجهه:

"أيها الناس..لقد فعلها الرجال..الأبطال..الآن أعلن عن عودة الوطن الغائب..اليوم أعلن عن مولد الجمهورية..لن نهمش من جديد..وسوف نصنع قيمتنا بأيدينا..من اليوم لن نخاف..لن نخاف..اليوم هو مولد جمهورية برشوط الحرة".

"بيان رقم ١: إعلان قيام جمهورية برشوط الحرة وعاصمتها قرية شولأط مركز مرتاحة غرب."

"بيان رقم ٢: تولى شئون البلاد - بصورة مؤقتة ولحين اختيار العناصر المناسبة وانتخاها - لمجلس قيادة الحركة الشعبية:

- السيد : جمصان جمعة رئيسا للمجلس.
- السيد : الغريب سيد وزيرا للداخلية.
- السيد : ضاحى الصابر وزيرا للدفاع.
- السيد : محمد إبراهيم عبد المنعم وزيرا للزراعة.
- السيد : أبو الليل وزيرا للخارجية.
- السيد : أبو هاشم هاشم وزيرا للصحة.
- السيد : عمرو أبو الليل وزيرا للصناعة.
- السيدة : بهانة الأسود هريدى وزيرا للثقافة.

على أن تتم أول الاجتماعات اليوم الساعة الثامنة مساءا..وسوف يتم إعلان نتائج جميع الاجتماعات بصورة مفصلة بعيدا عما اعتادته الجماهير من عبارات رنانة: مباحثات مثمرة..جهود متواصلة..بحث سبل تدعيم كذا وكذا"

"بيان رقم ٣: سوف تمر البلاد بمرحلة كاملة من التغيير والتطوير والشفافية..سوف تشهد عودة الحقوق واعطاء الفرصة لجميع الموهوبين والقادرين بعيدا عن الاسم أو الوساطة..كلكم أبناء هذا الوطن والوطن يحتاجكم جميعا"

"بيان رقم ٤: أنصح حكومة الدولة التى حكمتنا سابقا وأخذت منا ما أخذت ألا تتهور فى محاولة الاعتداء على حدودنا..لأنه عليها أن تدرك أننا كأى دولة ناشئة لنا أصدقاء..وأصدقاء أقوياء..ونحن لا نتحرك بدون العودة إلى أرائهم الحكيمة..أتمنى أن تكون الرسالة الواضحة قد وصلت..إليكم.........انتهى"

ثم أشار إلى مجموعة من الملثمين فاقتربوا من الكدر..نظر المخرج مستفهما فأشار له (جمصان) أن ينتظر وأشار للجمع بالكلام:

"يا عين...يا ليل"

"وآآآآآآآآآآآآآآآآه"

"دولتنا كانت محافظة"

"وشعبها كان رجله حافية"

"بس أحنا حررناها بالعافية"

"من بعد ما جابولنا الكافية"

"وبايدينا وعقولنا الشغالة"

"راح نغزو العالم بسفالة"

"وهنحكم شعبنا بثقالة"

"من غير منرجع تانى عالة"

موسيقى حماسية..ثم انغلق البث......

***

(٢)

العاصمة القديمة....

نفس اليوم..بعد الأحداث الدامية بدقائق..كثيرة نوعا.....

قاعة احتماعات مجلس الوزراء......

***

"دى فضيحة..كارثة..مهزلة..خيبة ثقيلة"

انكمش المجلس كله أمام الغضب الهادر المنبعث من حنجرة رئيس الوزراء..كان وجهه محتقنا كإطار سيارة لم يلمس الأسفلت..يطوح بكفيه هنا وهناك فى الهواء كمايسترو..كان الجو العام أقرب إلى الانفجار..البعض يغلى والبعض ينقر على الخشب بلا انقطاع فيبدو الايقاع كخليفة مشهد يوشك على الإنفجار..لكن البعض ايضا – وعلى الرغم من ذلك – لم يكن متوترا بالفعل.....

"كنتوا فين يا جدعان لحد ما حصل الكلام ده..دول احتلوا المحافظة ومبنى الإذاعة..ناقص أيه كمان؟"

مسح وزير التأمينات والشئون الاجتماعية الرزاز عن وجهه وقال:

"طيب أنا ذنبى ايه تصحونى الساعة ١٢ الظهر علشان الحكاية دى..أنا وزير التأمينات"

"خلاص يا سيادة الوزير..اتفضل كمل نوم فى بيتكم بدل بقت كده وأحنا أسفين على إزعاك..ونوعدك مش هنصحى سعادتك غير لما تقال الوزارة".

تصاعدت الهمهات بأن (فال الله ولا فالك) وأشياء من هذا القبيل لكن نظراته الغاضبة أسكتت هذا اللغط سريعا..هكذا رفع وزير أخر يده يطلب الكلمة وقال:

"حضرتك طيب أنا برضوا وزير البيئة..أروّح معاه!!"

يصيح رئيس الوزراء فى هياج:

"يا سيدى كلها ساعات ونريح كلنا فى لبيت..متخفش..واحتمال نهرب بره البلد".

انكمش الوزير أمام هذا الهجوم اليائس فى حين تحدث أحد الوزراء فى وقار وقال:

"بصفتى وزير الثقافة أحب أشير بأصبع الاتهام وبشكل مهذب متحضر ولكنه فى نفس الوقت حازم ومؤثر إلى وزير الداخلية"

هكذا انتفض وزير الداخلية واقفا وصاح:

"نعم؟..مش فاضل غيرك يا وزير الثقافة..يا بتاع الشو الروسى والطبل والزمامير ومهرجان السيرك القومى..متخليك محترم زى اللى سبقوك".

هكذا يتدخل رئيس الوزراء غاضبا ويقول:

"كفاية يا سيادة الوزير ميصحش..ثم أنا شايف إنك فعلا متهم".

"لا لا لا لا لا لا..أنتوا أخترتونى ولا أيه..لا أنا مشلهاش لوحدى..مش أنا كبش الفداء..أنا يا سيدى بتاع هجامة..بتوع مخدرات..أنزل بمستواى شوية وأقول نشلين وأخدمك قوى فى الارهاب..أنا بتاع ذقون وجنازير..وأنا من الناحية دى مقصرتش..لكن وزير الدفاع....."

"نننننننننعم"

هكذا صرخ وزير الدفاع فى هياج:

"وزير ايه؟؟..لا يا عمنا معلش..أنا وزير الدفاع..يعنى مدافع..يعنى طيارات..يعنى احتفالات عيد النصر وعيد الاستقلال وعيد الدفاع وعيد البتاع..وأنا برضوا من الناحية دى مقصرتش..مالى أنا ومال لعب العيال ده..الموضوع مش هجوم خارجى ومحدش طلب مننا التدخل".

استدار إليه وزير الداخلية ورد منفعلا:

"ده انقلاب..يعنى جيش..والمفروض الجيش كان يتدخل بمجرد ما وصلته الأخبار..بس واضح إنها موصلتش أصلا".

"ما هو لولا همة سيدتك مكنش بقى انقلاب"

"ولولا هربك من المسئولية مكنوش خلصوا العملية لحد أخرها وكمان عينوا مجلس الوزراء بتعهم وأحنا لسه بنرمى على بعض".

"متقول لنفساااااااااااك"

"كفاااية"

هكذا صاح رئيس الوزراء..صمت الجمع للحظة فألتقط نفسا قصيرا وأردف:

"أنتوا هتتخنقوا قدامى وتنسوا المصيبة السودا اللى حلت علينا..سيادة الرئيس بنفسه مستنى تقرير باللى حصل"

هكذا تراجع كل وزير فى مقعده وأنكمش فيه..مرت لحظات من الصمت قبل أن يقول وزير الصناعة فى ضيق:

"يا باشا بناقص محافظة..دى حتى كانت فقر ومش جاية همها"

حدق فيه رئيس الوزراء فى كراهية فخرس....

قال وزير الداخلية فى حزم:

"متخفش يا باشا..احنا هنقطع عليهم الميه والنور".

"بعد ايه؟..بعد ما كرمتنا اتبعترت"

"الموضوع هيتلم فى ثوانى قبل ما يكبر يا فندم"

ثم أردف:

"الموضوع بسيط..هو بس وزير الدفاع يطلع الجيش....."

قاطعه وزير الدفاع كالمجنون:

"تاااااااانى..يا سيدى أعمل حاجة مفيدة لنفسك وبلاش فضايح..تدخل الجيش ده عار عليكم".

كاد الاشتباك الأحمق أن يحدث لولا أن تعالى رنين الهاتف الخاص فأمسكه رئيس الوزارء مسرعا وأجاب:

"تمام يا فندم"

هكذا خرس الجميع وقد عرفوا طبيعة المتكلم..تسمروا كالتماثيل حتى أن وزير الدفاع لم يعد لجلسته....

"تمام يا فندم"

ثم ابتلع ريقه فى توتره.....

"تمام يا فندم"

ثم أغلق الهاتف وراح يمسح وجهه بكفيه فى توتر..همس وزير الداخلية فى قلق:

"يا فندم أحنا مش محتاجين جيش ولا حاجة..أنا هخلص الموضوع ده فى دقايق..أينعم أنا مش عارف قوتهم بالظبط بس مفيش مشكلة"

"لا يا سيادة الوزير..أصبر شوية"

قالها رئيس الوزراء ببطء فتراجع وزير الداخلية مندهشا.....

"سيادة الرئيس حابب نتروى شوية لحد منفهم بالظبط الكلام اللى اتقال فى البيان بتعهم..بتاع الدول الصديقة ده"

"حضرتك تقصد..."

"كلام الريس صح..ممكن القصة كلها تكون لعبة كبيرة بتتلعب علينا..يعنى أى تحرك أمنى أو عسكرى ممكن يستغل ضدنا..ونخش فى دايرة حقوق الإنسان وقوات أجنبية لحفظ السلام وألخ ألخ... "

"الموضوع لازم يدرس بحرص"

تسمر الجميع.......

هكذا مسح رئيس الوزراء على رأسه مجددا وقد تمالكه شعور عارم بالضياع......

***

(٣)

العاصمة الجديدة....

نفس اليوم..بعد الأحداث الدامية بدقائق..أقل نوعا.....

قاعة اجتماعات مجلس الوزراء الجديد (دوار العمدة)......

الاجتماع الوزارى الأول.....

***

جلس (جمصان) على رأس المائدة الوزارية الجديدة ثم تبعه الوزراء الجدد بالتتابع حتى أكتمل النصاب..كان الجميع ملتزمين بالجلباب كزى رسمى لا تغيره المناصب لكن معظمهم ارتدى عليه حلل من غنائم الحرب..بعضها أيضا كان مرصع بالرتب..لكنه كان لبس مختلف بطبيعة الحال....

جلس (جمصان) وخلفه جلسوا وكانوا منتشين فى فخر..من خارج الغرفة يشير الأخ الصغير إلى (جمصان) فيبادله التحية قبل أن يستعيد القناع الصارم على وجهه ويقول فى جدية:

"بسم الله الرحمن الرحيم"

"يا رجالة النهاردة كان يوم تاااااريخى جدا..شئ عظيم وتضحية هايلة..ومجازفة دفعنا تمنها من دمنا علشان الناس دول".

"لكن لازم دلوقت نفهم إن المخاطرة مخلصتش..والوضع لسه مستقرش..يعنى إننا ممكن نخسر كل ده فى لحظة ومع أول رد فعل

للحكومة ضدنا..إحنا لسه قدمنا نضال كبير علشان نقول إننا عدينا".

"علشان كده بقولكم إننا علشان نوصل لازم يكون الشعب ورانا..هو ده سندنا الحقيقى وأساس قوتنا والداعم لينا..وهو سبب الثورة..علشان كده عايزين فى خلال الفترة القصيرة القادمة ثورة تغيير..مفيش أكل ولا شرب ولا نوم..فيه سهر وتعب علشان نقدر نطرح مشاريع حقيقية تسعد الشعب وتغير من شكل البلد دى تماما..عايزين نكون البلد اللى نستحقها".

"أنا الفترة الجاية هغيب فى المدينة ومعايا (ضاحى) علشان ندعم إجراءات الأمن والدفاع ونكون على اتصال بالحكومة لمحاولة تحقيق استقرار للموقف..الحاج (محمد) مكانى الفترة دى..عايز أرجع بعدها ألاقى الناس بتزغرط فى الشوارع..عايز نتايج".

هز الجمع رأسه فى حين أمسك (جمصان) الورق الذى أمامه وراح يقلبها فى تركيز..قال:

"مهم يكون الاجتماع ده محاط بأكبر قدر من السرية زى ما كنا بنتكلم".

فتل أبوالليل شاربه وقال نافخا صدره العملاق:

"وأنا بنفسى أشرفت على إجراءات الأمن يا ريس".

"عظيم..أول موضوع مطروح للمناقشة..بخصوص الخارجية وتنسيق العلاقات مع الدول المجاورة أولا والدول العظمى ثانية".

يرد (أبو الليل):

"تمام يا ريس..أحنا ماشيين بمبدأ (اللى مينفعنيش ميلزمنيش)..أحنا هنمد علاقتنا مع الدول المتقدمة وهنأكد أننا طبعا حبايب..لكن بالنسبة للجيران فنظامنا صباح الخير يا جارى..أحنا مش هنضيع فلوسنا وأرواحنا على مشكلهم اللى مبتخلصش وفى الأخر نتشتم على الفضائيات..أحنا دلوقت بعيد عن كل المشاكل وحدودنا نضيفة..يبقى نكبر دماغنا ونوفر..وأحنا اللى هنبتدى نشتم الناس فى الفضائيات.. وده لوحده هيعملنا جبهة مش قليلة".

ينظر إليه (جمصان) متعجبا:

"أه ده ؟..جبت الكلام الجامد ده منين يا (أبو الليل)؟"

"تربيتك يا أستاذ".

"عظيم..عظيم..استمر".

"بس يا ولد....!!"

كان هذا الصوت الهادر المهدد من حنجرة (أبو الليل) ناهرا ولدا صغيرا كان قد تسلق الشجرة بجوار النافذة وراح يتابع الاجتماع فى شغف..هكذا قفز الولد من فوق الشجرة ما بين الذعر والضحك وراح يعدو....

ابتلع أبو الليل ريقه فى حرج وتحاشى نظرات جمصان العاتبة..ثم تنحنح وقال:

"باين فى حاجة غلط حصلت فى إجراءات الأمن..بعد إذنك يا ريس أنا هكلم الرحالة فى التلفون علشان الأمن يستتب".

هكذا تناول سماعة الهاتف وهم بالكلام..لكنه انكتم بغتة قبل أن يفعل وعقد حاجبيه وهو ينصت..كان قد سمع فى هاتفه:

"مش عايزة كلام فى الموضوع ده يا نحمده".

"يعنى أيه يا كاتعة..هتسبيه يتحوز عليكى وتسكتى له؟"

"يتحوز على مين؟..ده أنا كنت شرحته ورميته للكلاب تشمشم فى ماصرينه..وتحّول وتموت".

هكذا أغلق أبو الليل سماعة هاتفه مبهوتا وسط نظرات الجمع المتسائلة..ثم تدارك نفسه فابتسم باضطراب وقال:

"كله تمام يا رحالة..بس فكرونى أغير التلفون ده علشان مش أمان قوى يعنى"!!

هز جمصان رأسه فى لا مبالة ثم راح يقلب فى أوراقه مجددا.....

"الموضوع التانى..بيخص وزير الدفاع..سيد (ضاحى)..طبعا هيكون معايا اليومين الجايين فى مبنى المحافظة القديم علشان نحط الاستراتيجية الدفاعية واتمنى تكون فعلا جاهزة".

"جاهزة يا ريس".

"على بركة الله".

قال (جمصان) فى رضا:

"الموضوع الثالث..عن الانتاج الصناعى..وتحقيق الاكتفاء الذاتى..مش عايزين نصرف مليم على الاستيراد".

صاح (عمرو) غاضبا:

"استيراد ايه؟"

"تمام يا (عمرو)".

"استيراااااااد ايه؟"

"خلاص يا (عمرو)"

"استيرااااااااااااااااد ايه؟..هو أنا راحل ولا ورك فااااااارخة"

"جرى ايه يا (أبو الليل)؟.. لم ابنك"

يبتلع (عمرو) ريقه ويردد:

"معلش يا ريس..الحماس خدنى..أحنا مجهزين خطة كبيرة لده..بس أهم حاجة إننا نوصل للناس أهمية شراء المنتج المحلى..ونعيشهم جو الحصار وكده"

"مفهوم..مفهوم..والتصدير؟"

"الخطة معايا"

قالها وأخرج ورقتين من جلبابه فى عصبية..سقطا على الأرض فغاص يحضرهما وهو يردد فى غضب:

"هم فين؟..هم فين؟"

تنهد (جمصان) وقال:

"مش ضرورى يا (عمرو)..المهم الاجتماع الجاى تكون الخطة جاهزة علشان ننقشها".

"يعنى اااااااااااااااااااايه الأسبوع الجاى؟"

"عمرو؟"

ثم قلب الورق وقال:

"الموضوع الرابع يخص الصحة..عايزين نظام صحى متكامل يدعم الطبقات الفقيرة..وعايزين حرب قاسية على الأمراض المتوطنة..طبعا أنت راجل خبرة وأكيد المناسب".

"طبعا..طبعا..الأفكار كلها فى دماغى".

قالها (أبو هاشم).....

"بس يا ولد".

صاح بها (أبو الليل) مجددا وقد فار دمه..صوت ضحكات طفولية وأقدام تعدو..هكذا هز جمصان رأسه مجددا بلا تعليق.....

"الموضوع الخامس والأخير يخص دعم الانتاج الزراعى وتحقيق الاكتفاء ، التصدير..طبعا الحاج (محمد) يعرف أزاى يحقق ده"

"بالنسبة لحضرتك يا ست (بهانة) وكوزيرة للثقافة..اه..اه..اه..أعملننا.."

ثم فكر لبرهة قصيرة وقال:

"أعمللنا أى حاجة حلوة كده تجى فى دماغك".

نظرت إليه بهانة فى بلاهة..هكذا تنحنح وقال:

"كلام عظيم..الخطط دى هتأخد على الأقل أسبوعين لتجهيزها وده ميعاد الاجتماع القادم معاكم لما أرجع من المدينة إن شاء الله..بس دى مدة كبيرة..أنا عايز تبلغونى فى خلال يومين بخطط مبدئية..تتنفذ بسرعة وتعلن بصورة يومية على الناس فى التلفزيون..عايزين المواطن يحس بالفرق بسرعة علشان يكون معانا..تمام؟"

"تمام يا ريس؟"

"وأنا يا ريس؟"

قالتها (بهانة) فقال (جمصان):

"ريحى اليومين دول يا ست الكل أنتى تعبتى اليومين اللى فاتوا.."

ثم أردف وكأنما تذكر شيئا:

"ويا ريت كمان حضرتك تمسكى مع وزارة الثقافة وزارة البيئة والتأمينات..يبقى كده كتر خيرك"!!!

(٤)

الإعلام اليوم

جريدة الإجرام وهى جريدة حكومية:

"أنباء عن بعض القلاقل فى إحدى القرى الصغيرة جنوبى البلاد..شغب من بعض المواطنين بسبب الخلاف على قطعة أرض ينتهى بأحداث عنيفة فى قسم الشرطة..والأمن يسيطر على الموقف"

جريدة ضيق البلعوم وهى جريدة معارضة:

"انقلاب عنيف بالجنوب..مجموعة من الإرهابيين يقومون بانقلاب مسلح وينفصلون بالمحافظة معلنين قيام الجمهورية..والحكومة مازالت تائهة..والفضيحة تهز الإعلام المحلى والأجنبى"

جريدة صوت شؤلاط وهى جريدة جديدة حلت محل الجريدة المحلية السابقة:

"أبطال من الجنوب..يحققون الحرية والكرامة..الجماهير فى الشوارع ترقص وتغنى ابتهاجا بيوم الاستقلال".

***

قناة البحيرة:

يستدير المقدم بكرسيه اتجاه الشاشة الأولى ويقول:

"أستاذ مسعود العضو النشط بالحزب الحاكم..رجاء ما ردك على ما أثير بخصوص الانقلاب الحادث فى جنوب البلاد وفشل الحكومة فى السيطرة عليه؟"

يظهر الوجه المكتنز على الشاشة..يميل حتى يبتلع الكدر ويقول فى بطء:

"والله أنا اعتقد إن — فى كثير من الأحيان — بيستغل بعض الناس المعروفين للجميع أحداث شغب عاااادية جدا جدا بتحصل كل يوم فى أى حتة فى العالم لهز صورة الدولة وتلفيق أحداث خيالية وسخيفة والأغرب دفعنا دفعا إننا نؤكد الأحداث دى وإلا نتهم قال أيه إننا بنخفى الحقائق..ده كلام مضحك ومعتقدش إن في حد يصدقه خصوصا....."

"حسنا..حسنا"

ثم يدور ويتحدث إلى الشاشة الثانية:

"أستاذ عثمان..بصفة حضرتك من قادة حزب (بكرة حد جميل) المعارض..تعليقك على أحداث (شولأط)؟"

"هو أيش عرفه هو؟..هو كان قمر صناعى؟..ده...."

كان هذا صوت الرجل على الشاشة الأولى من ثم تم حجب الصوت عنه..هكذا تكلم الصوت من الشاشة الثانية فى عصبية:

"اعتقد أنه من السخافة إن الحكومة تتعامل معانا بمبدأ ثلاثين سنة فاتوا قبل الدش وتعدد دور الصحافة..يعنى تنكر حاجة العالم كله

أتكلم عنها وتناولها بالصور والتحليل..أين الشفافية؟..أين المصداقية؟"

تنحنح المقدم وقال:

"أستاذ عثمان..القضية كبيرة..ألا يوجد عنك تعليق إضافى؟"

"آه..آه نعم نعم..أكيد فيه كلام كثير..نحن نرفض..نرفض أى نوع من..من التعتيم..الشفافية يا أخوانا..الشفاااااااافية"

***

تمدد (بسطاوى) تحت ظل شجرة ضخمة وقد أعيا الكفاح ذراعه..هو مواطن من أبناء القرية البائسة وقد عاد إلى عمله فى فجر اليوم الثانى كجموع الفلاحين بعد أن استقرت بهم الأحوال وبعد وعود الحاج محمد الواضحة بالأمان..كان الانهاك قد أصابه فقرر أن يستريح تحت ظل الشجرة العجوز وبجواره تمدد زميله (سعد)..كان هذا الأخير قد فرد منديلا به طعام ودعا زميله كى يشاركه..رفض فى البداية لكنه استجاب تحت إلحاحه وتناول أقرب شيئا لامس كفه وهو لا يكد يراه..سأل متثاقلا:

"أنت فهمت حاجة من اللى حصل أمبارح فى البلد ده يا واد يا سعد؟"

"والله يا (بسطاوى) ما فهمت حاجة..هو تقريبا رجالة الجبل قلبوا العمدة ومسكوا هم العمودية..بس لحد دلوقت مش عارف إزاى الحكومة مخربتش الدنيا؟ "

"يا عم (سعد) الحكاية مش كده..أنت مشفتش الدش؟..دول مسكوا الحكم فى المحافظة كلها..ده الموضوع كبير..ده بيقولك أننا بقينا جمهورية لوحدنا..وبلدنا الصغيرة دى بقت العاصمة..كلام غريب قوى"

"يا عم بسطاوى أنت بتصدق؟..ما أنا شوفت القناة الأولى وقللك كل ده إشاعات"

"يا عم أولى أيه بس؟ بقولك دا اللى حصل فعلا"

"وفكرك ده حاجة كويسة؟"

تنهد (بسطاوى) وقال:

"والله أى حاجة أحسن من الغلب اللى أحنا كنا فيه ده..مين عارف؟..نصبر..يمكن الناس دى تكون نيتها خير".

"ويمكن جايين ينهبوها"

ضحك (بسطاوى) وقال:

"أش يأخد الريح من البلاط..كله محصل بعضه يعنى أحنا كنا بناخد أيه؟..بس أحنا كلنا عارفين الحاج (محمد)..دا راجل أيده نظيفة..ربنا يبركلوه".

يحك (سعد) رأسه غير فاهم......

"طب كل كل".

القيادة الأمريكية

ينطق الصوت الحازم من بين أنفاس سجائره قائلا:

"عايز أكبر كم من المعلومات عن الموضوع ده..عن الناس دى وخلفياتهم السياسية والدينية..٢٤ ساعة..فهمنى؟"

يفرد مساعده هامته الطويلة وهو يجيب كالآلة:

"أمرك يا فندم"

سعل الرجل الكبير فى قبضته ثم أشار له قائلا فى حدية:

"نفذ..الموضع التالى"

***

(٥)

مكتب رئيس الوزراء....

اليوم الثانى للانقلاب......

***

أغلق رئيس الوزراء هاتفه وعيناه تقتران بالإحباط..ثم استدار برأسه إلى وزير خارجيته الجالس أمامه..هكذا مال عليه وزير الخارجية وقال له فى بطء:

"خير يا فندم"

"أنا مستاء جدا"

"ليه يا فندم؟"

"علشان دخان السيجار اللى عمال دى يا (فتحى)"

انتبه وزير الخارجية فأطفأها محرجا......

"بص يا (فتحى)..الموقف زى الزفت..رئاسة الجمهورية عملت اتصالاتها وكان رد الدول العظمى مايع ومش مريح"

"أزاى يا فندم؟"

"أمريكا بتقول إننا لازم نتروى قبل إتخاذ قرار عنيف من شأنه الإضرار بسلامة المواطن..كلام عايم لا هو معانا ولا علينا".

تسأل وزير الخارجية فى قلق:

"يعنى فعلا الناس دول ممكن يكونوا مزقوقين علينا من بره..وتكون لعبة من أياهم"

دعك رئيس الوزراء عينيه فى عصبية وإنهاك:

"وارد جدا..الرد مش واضح..علشان كده الرئيس أمر بإرسال وفد رفيع المستوى وعلى رأسه هتكون سيادتك".

رد الوزير مبتهجا:

"أخيرا الريس رضى عنى..دا أنا عفنت من الجولات الأفريقية بتاعت تدعيم العلاقات".

عض رئيس الوزراء شفتيه فى يأس..حدق فى وجه وزير الخارجية للحظة ثم قال:

"يا سيدى هى مسألة رضا؟..هو مسفرك عقد عمل؟"

"خلاص يا فندم..دقايق وأكون جاهز"

تذكر رئيس الوزراء شيئا .....

"صحيح يا (فتحى)..أبقى خد معاك وزير الثقافة".

"ليه يا فندم إن شاء الله..ده لسه رايح أمريكا الأسبوع اللى فات!!"

قالها فى غل فتنهد رئيس الوزراء وقال فى تؤدة:

"يا عم هى فسحة فى القناطر؟..أحنا عايزين وفد كبير ثم إن وجود وزير الثقافة ده تمويه..روح يا حج جهز نفسك"

"مايجراش حاجة"

قالها ثم استدار منصرفا فتبعه رئيس الوزراء بنظره للحظات قبل أن يتناول هاتفه ويقول:

"أيوه يا بنى..وصلنى بوزير الداخلية"

ثوان ثم.....

"أيوه يا (فهمى)..بص..أنا عايزك تجهز قواتك..استعداد فقط..أيوه استعداد لإحتمال التدخل بالقوة فى أى لحظة".

ثم أمسك سماعة الهاتف حتى ذابت بين أصابعه وصاح:

"يا (فهمى) ملكش دعوة بوزير الدفاع..جهز نفسك أنت بس..نفذ"

***

مبنى المحافظة القديم......

نفس اليوم صباحا......

تنزلق العربة الفارهة فى نعومة لتتهادى أمام السلم الرئيسى لمبنى المحافظة السابق..فى انتظارها عدد غير قليل من الموظفين فى حلل أنيقة وكذلك جمع من رجال الجبل..كان الجمع الأول ينتظر بباقات الورود وكذلك الجمع الآخر بالطلقات النارية......

لحظات من الترقب الأبله والعيون كلها متعلقة بباب السيارة الأنيقة..ينفتح تدريجيا فتتسع العيون الخائفة وتتسابق الأعناق

مترقبة..ثم يظهر (جمصان) من خلفه ويتبعه (ضاحى) المتعثر فى جلبابه فتتباين ردود الأفعال لكن أحدا لا ينطق..كان الأخير يقول:

"(زيد) ده من أخلص رجالتى..هو اللى كان مسيطر على المدينة لحد ما نورتها".

سمع أسمه فأندفع (زيد) من وسط الجمع ليصافح (جمصان) فى حرارة..حرك الأخير رأسه وقال:

"تمام تمام..شد حيلك يا (زيد)"

"إن شاء الله يا ريس"

وما إن سحب (زيد) كفه حتى اندفع الموظفون القدامى لمصافحة (جمصان) فى نسق محدد..هكذا أستوقفهم الأخير بيديه ثم أشار لهم قائلا:

"يا أخونا رايحين فين؟..أنسوا الأيام دى خلاص..احنا مش جايين نكبس عليكم ونعطل شغلكم..كل واحد فى شغله وأحنا اللى هنعدى عليكم واحد واحد".

هكذا نظر الجميع إلى (زيد) فى قلق فأشار لهم محرجا بالانصراف.....

"خف على الناس شوية يا (زيد)..مش عايزين نعمل زى اللى سبقونا..أهم حاجة المعاملة الطيبة والمرونة".

ثم استدار إلى السيارة الفخمة قائلا:

"وبخصوص عربيات المحافظة كلها تتباع وفلوسها كلها تروح على خزينة المحافظة ..أشتروا مكانها عربيات عادية..وبالفصال..إحنا بلد فقيرة..إزاى الناس هتصدق ده وأنت ماشى بعربيات زى دى فى الشارع..خلاص..عهد اللى..اللى ..اللى هو ده كان زمان ده خلاص انتهى".

هز الجميع رؤوسهم فى استحسان مبتذل ثم قال (زيد) وقد فرش أجنحة الطاعة:

"أمرك يا زعيم".

هكذا تبعثرت الهتافات المتحمسة من كل مكان باسم (جمصان) فأشار لهم بكفيه أن لا.. أشار إلى (زيد) كى يقودهم إلى أعمالهم فاستدار الأخير وأشار لهم فى غلظة..تحركت الجموع فى تأن وشعور بالخلاص يروى أرواحهم..من بين الجمع المنصرف يهمس أحدهم فى أذن زميله:

"شفت الحركات القرعة..فاكرنا هناكل من الكلام ده..قديمة وشفناها كتير..هى بتتدى كده بس وبعدين الشفط هيشتغل..هو فاكرنا جداد ولا إيه؟".

ثم استدار فوجد (زيد) فى ظهره..هكذا خرس تماما واكتفى بمراقبة (جمصان) وهو يسير متجها إلى مكتبه.....

الحاج (محمد) على رأس المائدة التى تتوسط بهو الدار..جالسا وحوله وجوه الأشباح..(عمرو) و(أبو الليل) و (أبو هاشم) وقد ملأ العرق أخاديد تفاصيلها..كان شاحبا والهم يغطى وجهه كالوشاح فلا ترى من ملامحه شيئا سوى القلق وكان متكئا على عصاه كمن ينتظر الفرج.....

لحظات ثم قرر الحاج (محمد) أن يبعثر التراب ويتكلم:

"لازم يكون عندنا حلول واضحة الناس تحسها فى ظرف اليومين دول..المفروض أسمع اقتراحتكم وأبلغها للريس النهاردة بالليل علشان يتم تنفذها من بكرة وإعلانها للناس..التلفزيون كمان لازم يذيع".

"أحنا قدها..قدها..قدااا"

"يااااا (عمرو)"

قالها الحاج (محمد) فى غيظ..لم يكن يحتاج المزيد من التوتر......

"الموضوع مش سهل..أحنا كنا نحب اللى يخطط لنا يكون ناس دارسة وفاهمة لكن أدى الله وأدى حكمته..أدينا بنسد لحد ما ربنا يفرجها..أحنا منقدرش نثق فى حد غير فينا"

"على العموم يا حاج (محمد) أحنا مجهزين حبة أفكار تمام بس نحب نتكلم فيها مع بعض ومع الريس الأول قبل ما نلفح بيها الجمهور..النظام حلو بردوا".

"خلاص..على خيرة الله..أحب أسمع..الناس عشمها فينا كبير يا أخونا"

هز (أبو هاشم) رأسه وقال:

"أكيد يا حاج..أنت بس متخفش وخليها على الله..أحنا قد المسئولية بردوه".

"على خيرة الله"

ثم رفع الحاج محمد رأسه كالديك وصاح:

"الشاى يا بهانة"

***

مطار واشنطن الدولى......

الوفد الحكومى عالى المستوى يصل إلى أرض المطار....

الجو الملبد ينذر بالهطول..هكذا استغرق الاستقبال الرسمى دقائق معدودة ثم استقل الجمع سيارات الموكب..كان وزير الخارجية شديد التوتر وكانت العجلة تناسبه..لم تكن زيارة صداقة وود على أى حال بل كانت – بوضوح – مهمة رسمية عاجلة..هكذا أدرك

المستقبلون للوفد لكن وجوهم الباردة لم تكشف شيئا مما يفهموه جيدا....

دقائق قليلة ثم تحرك الموكب.....

"ايه القرف ده يا أخى؟..من الدار للنار كده!!..على طول على البيت الأبيض..دا أحنا لما بيحلنا ضيف بنفسحه ونعمل معاه أحلى واجب"

قالها وزير الثقافة فاستدار إليه وزير الخارجية غير مصدق..كانت نظراته تقطر غلا.....

"أنت عايز أيه يا أخى ما أنت كنت هنا من أسبوع..ثم أحنا جايين نلعب؟"

"لأ..بس الزيارة لازم يكون فيها جانب ثقافى..أمال أنا جاى ليه؟"

ابتسم وزير الخارجية ابتسامة صفراء وقال:

"بلاش أقولك أنت جاى ليه..أتفرج من الشباك وأنت ساكت"

هكذا استدار وزير الثقافة إلى النافذة و لم يتكلم......

***

دوار العمدة......

كان الحماس الجارف يتدفق فى كل ركن بدار العمدة..فى البهو الكبير كان اجتماع الوزراء قد تجاوز الساعة..لم يكن اجتماعا كما

جرت العادة إذ غلبت عليه الحركة بأكثر مما ساده السكون..الكل يهرول فى كل اتجاه والهاتف فى كف الحاج (محمد) لا يفارقه ما بين مهاتفات لحمصان أو لغيره بينما الأصوات العالية من حوله لا تنقطع.......

كان (عمرو أبو الليل) فى ركن البهو أيضا..كان وجهه أحمر كالدم وكان يصرخ فى الهاتف:

"كلمت الاستديو..استعجلهم على الشغل..لازم فى خلال ساعتين يبقى جاهز..لحسن والله اضربه بالنار".

ثم أغلق الهاتف واندفع إلى الغرفة المقبلة حتى كاد يصطدم بالحاج (محمد) وكان هذا الأخير يعدو نحو الباب.....

"يا (زكريا)..يا (زكريا)..أنت فين يا واد؟..جهز العربية".

ثم استدار إلى الخلف وصاح:

"يا عم (أبو هاشم)..فينك؟..جهزت ورقك؟"

"جاهز يا حاج (محمد)..العربية جاهزة؟"

"الواد (زكريا) بيجهزها"

هكذا رفع الحاج (محمد) رأسه وصاح:

"يا (هاااااااااااااانة)"

كانت هى الأخرى فى طرف البهو تطل برأسها من إحدى الأبواب فأجفلت وهرعت إليه....

"أيوه يا سى (محمد)".

"يا (بهانة).. كلمىّ التلفزيون".

هكذا حدقت فيه فى بلاهة.....

"التلفزيون؟..وأنا مالى؟..أنا (ثقافة)"

"جرى أيه يا (بهانة)؟..يعنى هخلى وزير الداخلية يمسك التلفزيون؟؟!..أه هى بتحصل أحيانا بس دلوقت أنا القائم بأعمال الريس وبقولك تكلمى التلفزيون علشان تستعجليهم".

"ماشى يا أخويا..ومالوا"

ثم انصرفت مع المنصرفين..هنا تعالى صوت طلق نارى على المدخل..التفتت العيون ثم ظهر ظل (أبو الليل).....

"مش ياله ولا أيه؟..أنا جاهز"

"جاهزين يا (أبو الليل)..أيه بس الداخلة دى؟"

"يعنى أنا كنت بأضرب نار من أيام ما كنت فى الجبل..مش هضرب نار دلوقت وأنا وزير"

استدار الحاج (محمد) يخاطب الجمع ووجهه مزدحم بالأفكار:

"ياله يا جدعان..المؤتمر ده هيشوفه الريس فى التلفزيون"

قال (أبو هاشم) غير مصدق:

"الريس بنفسه!!"

حدق فيه الحاج محمد للحظة ثم قال:

"يا عم (أبو هاشم) الريس بتاعنا"

هز (أبو هاشم) رأسه فى خيبة أمل..كذلك فعلت (لمانة) وهى تغلق هاتف الدار وتميل على رأس زوجها قائلة:

"الريس بتاعنا؟..بلا وكسة..مش كنت أنت أولى"

رمقها الحاج (محمد) بنظرة غيظ و لم يرد....

"على العموم بيقوللك فى التلفزيون إنهم الساعة ٤ بالدقيقة هيكونوا هنا علشان يغطوا المؤتمر".

رفع الحاج (محمد) سماعة هاتفه من جديد وقال فى حماس:

"الو..أيوه يا ريس.."

مد (أبو هاشم) رقبته فى لهفة غير مصدق فمط الحاج (محمد) شفتيه مقهورا..أدار للعجوز ظهره ثم استدرك:

"أيوه معاك..الساعة أربعة ونص تفتح التلفزيون..هتلاقى المؤتمر متذاع..تمام يا ريس"

ثم استدار إلى (أبو الليل)....

"على بركة الله"

مكتب رئيس الوزراء......

وزير الداخلية يتكلم فى حدة ورئيس الوزراء يستمع فى تملل.....

"أنا جهزت كل حاجة زى ما الأوامر صدرت..ومن غير مساعدة....."

"وزير الدفاع..مفهوم"

"بالظبط..ومستعد أتحرك..بس أنا مش فاهم أمتى أتحرك..."

زفر رئيس الوزراء حمما من العناء وهو يجيب:

"تانى الموضوع ده؟..أمال أحنا بعتنا الوفد بتاعنا ليه؟..مش لازم ندرس الموقف كويس..الموضوع مش لعبة..وممكن جدا يكون جر رجل..لازم نرجع الأول للقوى العظمى ونحاول نستشف موقفهم من الحادث ده أيه..دول ولاد أبالسة؟"

"وأيش عرفنا إنهم هيتكلموا معانا بصدق؟..مش ممكن يخدعونا ويدونا الأمان"

"وممكن لأ..ممكن يقولوا ببساطة إنهم مع الحريات وإنهم بيدعموا الناس دى..فيه مليون أحتمال بس أحنا بنحاول نجمع كل الملابسات علشان ناخد القرار السليم..وتقارير المخابرات هتأكد برضوه".

مال وزير الداخلية بجسده على المكتب وهو يقول فى إصرار:

"الموضوع كله مش منطقى..احنا عندنا جهاز مخابرات قوى ومحترم..ازاى هيحصل الاتصال ما بين الناس دى ودول أجنبية للتخطيط لعمل انقلاب وكمان تنفيذه من غير ما نشم خبر"

"كل الاحتمالات واردة"

انفعل وزير الداخلية وقال:

"بس على الأقل نعمل حاجة..نقطع النور أو الميه أو التلفونات"

"لا لا لا لا لا!!!!!"

قالها الرجل مذعورا........

"كله إلا ده..بلاش عبط..دى هى دى الحجة اللى ممكن أى قوة عظمى تستغلها ضدنا..والكلام هيكتر على الشعب المسكين اللى ملوش ذنب واللعب على نغمة الحصار والتجويع وشرحه ..فيه أيه؟"

قال وزير الداخلية يأسا:

"طيب وبعدين؟..الناس هتقول علينا ايه؟..هوا؟..مفيش أى رد فعل..مفيش حزم؟"

رد رئيس الوزراء فى غيظ:

"بالظبط كده..لما الناس تسألك قولهم مفيش!!!..بص يا سيدى أخر الكلام هننتظر عودة الوفد إن شاء الله بالسلامة وعلى أساس تقريرهم هنقرر ونتحرك..إبدأ التجهيز والتعبئة من دلوقت..عايزك خلال ساعتين تكون مستعد وعلى الإشارة"

أطلق الوزير ألسنة من الهواء فى أنفاسه وهو يقول:

"وأمتى هيحصل الكلام ده؟"

"مسألة ساعات"

ثم نظر إلى ساعته....

"الصبر".

***

القيادة الأمريكية

يتحدث الصوت الحازم من بين أنفاس سجائره قائلا:

"المعلومات دى موثوق فيها؟"

يفرد مساعده هامته الطويلة وهو يجيب:

"كلها..الناس اللى قاموا بالإنقلاب ملهومش أى خلفيات سياسية أو دينية ومش على اتصال بأى جهة أجنبية..باختصار السكة ليهم مفتوحة".

تراجع الرجل بظهره مرتاحا وشبك كفيه قائلا:

"ناس مجانين صحيح..معقولة فيه ناس بالتهور ده فى بلد زى دى!!..تهورهم ده وفر علينا سنين شغل وأدانا فرصة العمر"

ثم سعل فى قبضته وأشار له قائلا فى جدية:

"ممتاز..الموضع التالى"

***

(٦)

الساحة الشعبية فى قلب القرية......

الساعة الرابعة والنصف عصرا......

***

الحاج (محمد) بقامته المهيبة وسط جماعة الوزراء أعلى المنصة..كان المشهد شديد الشبه بسرادق حملات الانتخاب..الأعداد الغفيرة تملأ الكراسى الخشبية وحشود أخرى من البشر تفترش الثرى..وهناك أعداد من الصحفيين تتوزع بين أركان السرادق كيفما اتفق..وبينما يتصاعد صوت اللغط فى كل أركان المكان الممتلئ بلحوم البشر وقف الرجل المهيب يناشد الناس أن يتكلم وكلتا قبضتيه على مكبر الصوت....

"هدوء..يا رجالة هدوء من فضلكم"..

هكذا هم (أبو الليل) برفع سلاحه حين أمسك (أبو هاشم) كفه فى اللحظة الأخيرة وهمس فى إذنه مذعورا:

"هتعمل ايه؟..أنت ناسى كلام الريس؟..مفيش أسلحة..ده المؤتمر متصور..".

"أنا مكنتش هموت..أنا كنت هصيب بس!!".

"هدوء..هدووووووووووء"

هكذا كرر الحاج (محمد) فبدأت الأصوات الهوجاء فى الانحسار تدريجيا..وتكلم هو:

"كل سنة وأنتوا طيبين يا رجالة"

"وأنت طيب يا حاج (محمد)"

"ربنا يخليك يا حاج (محمد)"

"وأنت بألف صحة يا حاج"

"يا رب يباركلك"

"والله أنت راجل فل".

"يا حاج محمد..والله أنت تستاهل كل خير".

هكذا أدرك الرجل – مرتبكا – أنه قد فقد السيطرة من جديد..كانت شعبية الرجل جارفة....

"هدوووووووووووء"

هكذا انسحبت الأصوات مجددا..انتظر لحظة ثم عاود الحديث...

"يا رجالة..أنا هنا بالنيابة عن الريس (جمصان) واللى كلفنى أنا وكل الوزرا إننا نبذل أقصى جهدنا علشان نحقق احتياجات أهل بلدنا اللى ياما استحملوا..الناس اللى ياما اتمرمطت واتنست..ولأننا منكم قررنا إن كلمنا معاكم يكون من غير حواجز..مش عن طريق التلفزيون والجرايد..علشان كده أخترنا المؤتمرات الشعبية..كده الأمور تكون واضحة للكل..أحنا معندناش حاجة نخبيها".

ثم استدرك قبل أن تتعالى أصوات التهليل الأعمى:

"ومن غير ما طول عليكم أحب أعرض باختصار الخطة المبدئية لتطوير البلد..يا ريت تركزوا معايا شوية".

أشرأبت الأعناق كدليل واضح على التركيز....

"بصفتى وزير الزراعة هتكلم معاكم عن الجزء اللى يخصنى وهدى الفرصة لأخوانكم الوزرا لعرض أفكارهم عليكم"

"بخصوص الزراعة..أحنا فى الأساس بلد زراعى..ولازم نعتز بده..أجدادنا علمونا كده..وعلشان كده جميع الأراضى اللى وقعت تحت أيدينا من أملاك العمدة ورجالته هيتم توزيعها بالعدل بين أصحاب العائلات بحيث تكون الأراضى ملك ليهم ويتم تقسيم ربح المحصول أخر العام بحيث تحصل الحكومة على الربع..ولو حب حد إنه يخلى الربح كله له يبقى يشترى الأرض من الحكومة بنص الثمن ويبقى ربحها كله حلال عليه ولو عايز يتنازل عن الأرض لينا يبقى هندفع ليه نص تمنها برضوه حلال عليه".

"بخصوص الأراضى الصحراوية اللى حولين الأراضى الزراعية فتتقسم على دائرتين..دايرة قريبة ودايرة أبعد..الدائرة الأولى هتعرض عليكم تملكوها ببلاش والربح هيتقسم بنفس الطريقة أما الدائرة التانية فالربح هيروح بالكامل لصاحب الأرض"

"فى النهاية هيكون توزيع الأراضى على خريجى كلية الزراعة بالمجان لتشجيعهم والاستفادة منهم..مش معقول هيعدوا على قهوة

فى بلد كلها طين..توزيع الأراضى هيكون تحت إشراف أنا شخصيا لمنع التلاعب..ومن أولها كده مفيش زعل..مفيش حاجة أسمها حبيبى يا حج محمد..وأنا أخوك يا حاج محمد..الحق حق قدام ربنا..دى أمانة..شكرا يا رجالة".

هكذا تراجعت الأعناق وتعالت الهتافات المتحمسة بين جنبات السرادق فجلس الحاج محمد وقد أعياه الحماس..ثم قام (أبو الليل) فخرس الجميع....

"سلام عليكم..يا رجالة أنا حاليا وزير الخارجية فمتخفوش".

تصاعدت الهمسات والأصوات المستريحة..هكذا عبث (أبو الليل) وأستدرك:

"دلوقت (الغريب) عمنا هو اللى ماسك الداخلية"

هكذا خرس الجميع مجددا....

"بالنسبة ليا أنا بوعدكم إنى هلف العالم وهخلي العالم كله يزورنا..كل يوم خواجة شكل..هخلى علاقاتنا بكل الدول زى الفل..وأكيد هنعرف نعمل مع الناس دى شغل كويس وهنسفركم كلكم تعملولكم قرشين".

"وأحنا مش محتاجين سفارات..أحنا بلد كرم..وأى سفير هيجلنا هياخد واجبه وهيضايف كل يوم فى بيت شكل..وأول ليلة هتكون عندى..وعلشان...."

هنا تعالى رنين هاتفه المحمول ليقاطع كلماته..كان (جمصان).....

لم يفهم لكن الحاج (محمد) أشار له محرجا أن أجلس..ثم تناول منه (الميكروفون) قبل أن يفهم وتحدث ململما الموقف:

"عظيم جدا يا سلام..يا سلام شكرا جدا يا (أبو الليل)..(أبو الليل) طبعا بيدى الفرصة لأبنه (عمرو) إنه يتكلم علشان يعرض...."

لكنه كذلك لم يكمل..ذلك لأن (عمرو) ما إن سمع اسمه حتى انتفض واقفا...

"أيوه أيوه..طبعا بديني الفرصة..ميدنيش الفرصة ليه؟؟..مش أبويا؟..أيوه أبويا..طبعا يديني الفرصة..دا أبويا يا ناس..أبويييييا"

ربت الحاج محمد على كتفه مهدئا فأبتلع ريقه وأردف:

"الإنتاج والصناعة في بلدنا هتتطور..أنتوا الطاقة يا رجالة وإنتوا اللى هتحركوا العجلة..من بكرة الصبح هنمر على بيوتك بيت بيت..هنعرف منكم أنتوا بتعرفوا تشتغلوا أيه..ولادكم بيعرفوا يعملوا ايه؟..لو عندكم مشاريع صغيرة هنبقى شركاء معاكم..هنمول المشاريع دى علشان تبقى مشاريع كبيرة ومصانع..مفيش حاجة مهما كانت صغيرة غير وهنهتم بيها..لأن المصلحة واحدة..مصلحتكم ومصلحة البلد.."

"أما أى منتج مش بيتصنع جوا بلدنا فممكن تجيبوه من برا..من غير جمارك..أى حاجة مش بتتصنع هنا معلهاش جمارك..يعنى مش هتخبوا الفيديو فى الهدوم تانى..وعيش وسبنى أعيش"

هكذا تعالت الهمهمات الراضية..كان للكلام عن الفيديو وقع السحر على أنفسهم....

"وشكرا"

ثم جلس (عمرو) منتشيا ومن خلفه نهض (أبو هاشم)..كان الحاج (محمد) قد لكزه فانتفض..هكذا قام وهو يسعل وتمنى الجميع ألا يضعف ذلك الهزال من قوة كلماته:

"السلام عليكم"

"ألف سلامة يا حاج"

"الله يسلمكم..النهاردة أنا وزير الصحة يا رجالة..وأنا أكثر واحد فيكى يا بلد لف ودار على مستشفيات..من النهاردة هلف على المستشفيات من جديد علشان أمشى اللى فيها على العجين..دكاترة الجامعة مش هيفتحوا عيادات..هيقعدوا ليل نهار فى المستشفيات يشوفوا الغلابة وإلا يسيبوها..ياده ياده بلاش أفترى..المستشفيات الخاصة هيترفع من عليها الضرايب ، كل مستشفى ملزومة بفتح قسم مجانى وإحنا كوزارة صحة اللى هنتولى الإشراف عليه وندعمه..كده يبقى كأن الضرايب وصلت للناس مباشرة".

"تكلفة الكشف فى العيادة هتكون عليها رقابة صارمة..وبرضوه الأدوية..وأحنا بنوعدكم إننا نلتزم بكل الوعود دى حرفيا".

"وحسبى الله ونعم الوكيل"

ثم سقط على كرسيه من فرط الإعياء..هكذا استعادت الجماهير حماس الأيام الخوالى وبدأت الحناجر تتصاعد بما توارثته من قاموس الهتافات (الإنتخابية) تحية للوزراء..أرادت (هانة) أن تأخذ دورها وأن يخرج صوتها من بين الحناجر الصارخة فلم تستطع..لاحظ الحاج (محمد) فأشار بطرف خفى ل(أبو الليل) لينهض الأخير فى بطء فيبتلع الناس ألسنتهم فى ثوان ويسود الصمت المذعور..عاد للجلوس مجددا وقد ترك البساط الصامت ل(هانة) كى تتحدث..هكذا استطاعت أن تقف للحظة وكانت مرتبكة....

"وأنا..وأنا هأفتح مكتبة"

أشار لها الحاج (محمد) بالجلوس فى حزم وقال:

"شكرا لكل الوزراء اللى أتكلموا وشكرا للشعب العظيم اللى حضر..شكرا ليكم..وأحنا مش أكبر منكم يا رجالة..أحنا هنا علشان نخدمكم..وعلشان نخدمكم لازم نكون دايما محترمين فى نظركم وإلا يبقى أحنا بنفترى وبنأمر وننهى فيكم بالفتوانة..وهو ده الفرق بينا وبين اللى قبلنا..علشان كده قررنا إننا نجتمع بكم كل أسبوع..علشان نسمعكم وتسمعونا ولو فى غلط نتحاسب..أحنا مفيش على روسنا بطحة..وعلى فكرة ده مش كلامى..ده كلام سيادة الرئيس"

انكمش الكل فى ذعر وساد الصمت كالغيمة..لم يفهم الحاج (محمد) لكنه استدار إلى يمينه فوجد (أبو هاشم) يحدق فيه مرتعدا فاستدرك:

"الرئيس (جمصان) يا أخونا"

تنفس الناس من جديد فى حين قال هو:

"انتهت الجلسة..أى أسئلة"

هكذا عاد الهتافات الحارقة من جديد......

***

مبنى المحافظة السابق......

مكتب المحافظ.....

تناول (جمصان) هاتفه فى رضا..كان جالسا خلف مكتبه الضخم وقد ارتدى حلة سمراء غير مقنعة..التلفاز فى مواجهته بينما يحدثه الحاج (محمد) وقد بدا صوته متحمسا.....

"أيوه يا حاج (محمد)..شغل كويس..المهم عندى رد فعل الجماهير..وتكونوا سبتوا الناس تسأل وتستفسر بعد المؤتمر..ده مهم جدا"

صمت لبرهة..ثم.....

"عظيم جدا..أكثر من ممتاز..أهم نقطة ملخص المؤتمر يترل بكرة فى الجرائد..مش عايزين قوانين من اللى محدش بيفهمها

دى..القانون اللى مش بيتفهم يبقى قانون مايع ممكن يتلعب فيه..المشاريع تشتغل فورا..الناس لازم تتأكد إنه مش كلام وبس..مفهوم؟..وصوروا الناس فى التلفزيون بمناسبة ومن غير مناسبة..الناس بتحب ده".

صمت أخر ثم....

"تسلم يا حاج (محمد)..تمام جدا..بص يا حاج.. بعد ثلاث أيام بالظبط وبعد ما الناس تشوف بنفسها إن وعودنا دى بتتنفذ إنك تعلن إن كل المزايا الجديدة دى هتتطبق بس على المتعلمين..وأفتح مراكز لمحو الأمية بعد الضهر فى المدارس تشرف عليه بنفسك..وتجبلهم أحسن مدرسين".

صمت مرة أخرى..وهذه المرة فكر كثيرا...

"مش ببلاش..خليه برسوم..رمزية علشان توفر دخل للمراكز".

كان الهاتف على أذنه حين سمع طرقات منتظمة على الباب..لحظات ثم ظهر (ضاحى) بجسده الضخم وجلبابه الفاتح..هكذا أشار له (جمصان) بيده أن أدخل فتقدم (ضاحى) وما زال (جمصان) يستمع إلى الحاج (محمد) مصغيا..مال (ضاحى) بجزعه ثم وضع ورقة أمام بصر (جمصان) وهمس:

"السكرتير بيقول إن الجواب ده لسه جاي على الجهاز اللى اسمه...."

"الفاكس؟"

"تمام جنابك بسم الله ما شاء الله..ريس بصحيح".

ألقى (جمصان) نظرة خاطفة على محتوى الورقة ثم انتفض..هكذا تحدث مسرعا:

"خلاص يا حاج (محمد) نفذ وأنا هتابع معاك..أعمل حسابك أنى هتأخر هنا شوية علشان أظبط الدنيا ..البلد أمانة فى رقبتك..تسلم يا حاج..سلام عليكم"

ثم أغلق هاتفه فى حين تكلم (ضاحى) حيث وجد المساحة وقال:

"كله تمام يا ريس؟..الموضوع ثقيل ربنا يقويك"

تناول (جمصان) الورقة فى اهتمام وأجاب دون أن يلقى عينيه على رجله:

"ربنا يبارك فى الحاج (محمد)..راجل ممتاز وفعلا خايف على مصلحة الناس..ربنا يخلى نيتنا دايما لوجه الله"

كانت عيناه تقرأن الفاكس كمن يجرى خلف حبيبته..ارتجف وقد قرأ ما قرأ ثم التفت إلى (ضاحى) والذى لم يفهم شيئا من الورقة أو من تعبير وجه (جمصان)..اكتفى بالصمت الأحمق حتى استدار لـ (جمصان) وكان الحماس يسيل من عينيه.....

"(ضاحى)..عايز أعمل اجتماع مع نخبة من أساتذة الجامعة هنا..ياريت يكونوا حوالى عشرين ومن كل الكليات..وجهزلى ندوة فى الجامعة بعد بكرة"

صمت الرجل لوهلة كمن يزن المعنى فى عقله..يسقط فيلتقطه من جديد.....

"أساتذة جامعة؟"

"هتفهم كل حاجة يا عم (ضاحى)..كله فى وقته..شد حيلك بس ونفذ"

هز الرجل رأسه فى عدم اقتناع..حيرة..ثم بعض القلق..لكنه فى النهاية أجاب:

"ماشى يا ريس"

أعطاه (جمصان) ابتسامة اعتزاز..هكذا هدأت نفس الرجل ودار..ظل (جمصان) يتابعه بنظره كاتما ما بداخله من ضجر وضيق..ومع صوت الباب المكتوم وجد نفسه يعيد قراءة ما رأى وفى روحه شعور عارم بالحماس والثقة..كان هذا يفوق توقعاته..فى هذه اللحظة على الأقل......

حينها أجرى اتصالا جديدا بالحاج (محمد)....

"أيوه يا حاج (محمد)..أسمع اللى هأقولهولك وأفهمه كويس بس متوصلش الكلام لحد من الناس..ده هيبقى وسط مجلسنا بس.."

"وصلنى فاكس دلوقت..من السفارة الأمريكية..الرسالة باختصار إنهم سعداء بالمؤتمر اللى تم عقده دلوقت واللى أكدلهم إننا بنسعى لإنشاء مجتمع متعاون وتحقيق تجربة ديموقراطية ناجحة فى إحدى دول العالم الثالث..وإنهم بالتالى بيحبوا يدوا لينا الفرصة الكاملة لإثبات إخلاصنا فى رغبتنا رفع الظلم عن كاهل أبناء الشعب..يعنى إحنا دلوقت لينا ظهر ولحد ما نقف على رجلينا".

فهم (جمصان) من رد الحاج (محمد) أنه لم يعى أهمية ما قال بالقدر الذى تمنى لكنه لم يعقب..فقط قال:

"بص يا حاج (محمد)..هكلمك كمان شوية..بس زى ما فهمتك..مفيش حاجة تخرج بره..خاصة للناس..أنت عارف أنا بثق فيك و بحبك قد أيه يا حاج (محمد)".

صمت ثم......

"ربنا يبركلى فيك يا حاج (محمد)..مع السلامة"

أغلق الهاتف..لحظات وكان (ضاحى) قد عاد إلى المكتب وكان ثابتا....

"كله تمام يا ريس..كلمنا رئيس الجامعة وهو جاى بنفسه ومعه الوفد فى خلال نص ساعة".

صمت (جمصان) لوهلة يفكر..فكر كثيرا حتى شعر (ضاحى) بالخدر فى ساقيه..ثم استدار إليه أخيرا وقال فى بطء:

"فيه مهمة لو عرفت تنفذها يا (ضاحى) مش هخلى نفسك فى حاجة طول ما أنت معايا"

"رقبتى"

"أنا عايزك تجهز رجلتك..عايزك تنقى أذكاهم وأصغرهم ويا ريت يكونوا لفوا وداروا وعارفين البلد دى كويس..رجلتك دول هيكونوا معايا دايما..هيكونوا عيونا اللى بنشوف بيها وهيكون دايما وسط الناس وشبه الناس..عايزهم فى المحافظة هنا وكمان فى بلدنا وفى كل بلد..وأول مهمة هكلفهم بيها هى إنهم يدبوا دوب جوه الجامعة..حبة منهم طلبة..حبة موظفين..حبة عمال..أى حاجة..فى النهاية عايزهم فى أسرع وقت يرجعولى بالتقارير.."

"تقارير؟"

"عايز أعرف أيه اللى بيحصل فى الجامعة؟..الشباب بيفكر فى أيه؟..عايز أعرف مين من أساتذة الجامعة محل ثقة وفعلا نظيف وممكن يعتمد عليه..مش مهم سنه ومنصبه..عايز أعرف مين أصحاب السمعة الطيبة ومين بيجرى ورا السلطة والفلوس..وخاصة اللى ماسكين مناصب حاليا..وعايز ده فى أسرع وقت"

فكر (ضاحى) لبرهة..كان تائها لكنه حسم أمره وقال:

"تمام يا ريس"

صمت (جمصان) من جديد وفكر..نظر ل(ضاحى) من جديد ثم واصل التفكير.....

فندق كبير بالعاصمة الأمريكية....

من داخل جناح راق بالفندق....

وزير خارجية البلد الرئيس وقد أمسك هاتفه وراح يتكلم..كان منفعلا وجسده يدور فى المكان بلا انقطاع.......

"يا سيادة رئيس الوزرا زى ما بقولك كده..الناس دى بتلعب بينا..أنا كنت متصور إن الكلام معاهم مسألة شكلية مش أكثر..أخر حاجة كنت أتصورها إنى أسمع الكلام العايم ده..دول قعدوا يقولوا إنهم لسه مكونوش فكرة كافية عن الانقلاب ده والقائمين عليه..وإنه من التسرع عمل أى شئ فى الوقت الحالى..وكمان نصحونا بضرورة التروى قبل اتخاذ أى خطوة ممكن تودى بحياة أبرياء"

لحظات استماع ثم...

"زى ما بقولك كده يا فندم..الموضوع خطير..واضح إنهم مش فى ضهرنا..ويمكن كمان ضدنا..الأخطر والأقرب للعقل إنهم يكونوا ورا الجماعة دول"

صمت ثم...

"بالظبط يا فندم..أنا الموضوع من الأول مش داخل دماغى..معقولة شوية فلاحين جهلة هيخططوا وينفذوا كل ده..لازم يكون وراهم أبالسة..واضح إنهم قرروا يقلبوا علينا يا فندم"

صمت مجدد ثم...

"أنا شايف برضوا إن رئيس الجمهورية لازم يتحط في الصورة فورا..أنا هستنى مكالمة سيادتك ومش هرجع غير..."

"خلاص يا فندم هأرجع فورا على أول طيارة"

سؤال ثم...

"وزير الثقافة؟؟؟"

صمت طويل ثم...

"بيشترى شوية حاجات للأولاد سيدتك..هرن عليه وهنرجع فورا يا فندم"

برهة ثم...

"تمام يا فندم".

هكذا أنهى الوزير اتصاله المقتضب..وظل يحدق لدقائق فى هاتفه وكأنما نسى كل شئ..ابتلع ريقه وعاد للواقع..هكذا رفع هاتفه من جديد وأجرى اتصالا أخر......

كان متوترا حتى أنه قد أخطأ الاتصال عدة مرات

***

(٧)
الإعلام اليوم

جريدة الإجرام وهى جريدة حكومية:

"تراجع أحداث الشغب فى شؤلاط..التدخل الأمنى الحازم يعيد الهدوء إلى القرية والقبض على عشرين مواطن من مثيرى الشغب"

جريدة ضيق البلعوم وهى جريدة معارضة:

"الانقلاب السافر يدخل يومه الرابع ومازال الصمت الأمنى العجيب يثير علامات الإستفهام..وفد رفيع المستوى يغادر إلى الولايات المتحدة وسط تساؤلات عن حيثيات هذه الزيارة فى هذا التوقيت تحديدا"

جريدة صوت شؤلاط وهى جريدة جديدة حلت محل الجريدة المحلية السابقة:

"أبطال من الجنوب..عودة الحرية والكرامة.. الجماهير فى الشوارع ما زالت ترقص وتغنى ابتهاجا بيوم الاستقلال".

***

قناة البحيرة:

عدل المقدم رباط عنقه ثم استدار بكرسيه تجاه الشاشة الأولى وقال:

"أستاذ مصطفى العضو النشط بالحزب الحاكم..رجاء ما هو ردك على ما أثير بخصوص الصمت الأمنى تجاه الانقلاب الحادث فى

جنوب البلاد وعدم القدرة على السيطرة عليه حتى الآن..وبخصوص زيارة الولايات المتحدة فى هذا التوقيت بالذات؟..هل هو نوع من الاستئذان قبل القيام بأية تحركات عسكرية؟"

ثم يظهر وجه نحيف على الشاشة..يميل لكنه لا يستطيع أن يبتلع الكدر ويقول فى بطء:

"ده كلام غريب جدا جدا الحقيقة..أنا شايف إن القصة كلها من نسج خيال بعض الإعلاميين اللى كبّروا قصة الجماعة دى..دى مجرد أعمال شغب محدودة فى إحدى القرى لكنهم عملوا منها فيلم محدش الحقيقة ممكن يصدقه..والمواطن عندنا من الذكاء بحيث إنه بيعرف يميز الحق من الباطل..أما الزيارة فدى زيارة عادية جدا وكان مقرر لها تتم منذ أكثر من سنة ونص وده من أجل بحث سبل....."

"حسنا..حسنا"

ثم يدور ويتحدث إلى الشاشة الثانية:

"أستاذ عيسى..بصفة حضرتك من قادة حزب (بكرة حد لذيذ) المعارض..تعليقك على أحداث (شولأط)؟"

"مين عيسى ده كمان!!!!!"

كان هذا صوت الشاشة الأولى ثم تم قُطع الصوت..هكذا تكلم الصوت من الشاشة الثانية وكان غاضبا:

"اعتقد إنه مازلت الحكومة بتحاول تكسب وقت من خلال اللجوء لتصريحات بعيدة جدا عن الواقع..العالم كله عارف حقيقة اللى بيحصل فى شؤلاط والحقيقة إن وضع زى ده عادة ما ينتهى باستقالة الوزارة..لكن طبعا مش عندنا حيث الوزير لا يستقيل ولكن فقط يقال..نحن نعانى يا سادة من نقص حاد فى الشفافية..الشفاااااااااافية"

ثم سكت فتنحنح المقدم وقال:

"أستاذ عيسى..القضية كبيرة..ألا يوجد عنك تعليق إضافى؟"

"آه..آه نعم نعم..أكيد فيه كلام كثير..نحن نرفض..نرفض أى نوع من..من التعتيم..الشفافية..الشفاااااااااافية"

***

القرية......

استند (بسطاوى) على جزع الشجرة فى الهاك وقد غطى العرق تفاصيل روحه.. بجواره جلس (سعد) ومعه منديل الطعام الضخم..هز (بسطاوى) رأسه ثم أشار لزميله أن يفتح كيس الطعام..فعلها زميله من ثم مد الأول يده فى هم وهن وراح يتكلم من بين أشلاء الطعام قائلا:

"كلام عجيب اللى أتقال أمبارح يا (سعد) يا أخويا"

"والله يا (بسطاوى) أنا متفائل..أنت عارف الحاج (محمد)..راجل من ضهر راجل..وعينه مليانة..وده يخليني ماخفش

حتى لو حوليه رجالة الجبل..مش هيكون بردك أسخم من العمدة ورجالته"

"فكرك يا (سعد) إنهم فعلا هيعملوا اللى وعدوا بيه ده"

"طبعا يا (بسطاوى)..أنت مشفتش الحاجات اللى اتعملت على مدخل البلد..دول شغالين فى مكاتب توزيع الأراضى دلوقت..مش بس كده..دول بيقولوا هيعدوا على البيوت كمان".

حدق فيه بسطاوى..

"بالسرعة دى؟"

"دول بيقولوا على أخر الشهر هيكونوا وزعوا الأراضى..كفاية إن الصوان ده هيتعمل كل أسبوع علشان يبقى فيه مراجعة وعلى عينك يا تاجر"

"كلام جميل والله"

أكمل سعد وقد أخذه الحماس:

"دول عملوا صناديق جزاز للشكاوى والتظلمات فى كل حارة وبيقولوا إنها هتوصل لهم شخصيا كل أسبوع وهيترد على أصحابها عن طريق التلفزيون والجوابات.

تنهد (بسطاوى) وقال:

"والله الواحد خايف يصدق"

"منصدق يا سيدى..هنخسر ايه يعنى؟"

ضحك (بسطاوى) وقال:

"على قولك..ولو مصدقناش هنعمل أيه يعنى؟"

ثم فرد ذراعيه فى كل اتجاه واستدرك:

"بينا على الغيط ياض قبل النهار ما يعدى"

***

(٨)

مقر دوار العمدة......

الحاج (محمد) يغلق هاتفه ثم يشرد للحظة..كان حائرا حتى أنه قد سار كالمخدر حتى أستلقى على أريكته وعقله مازال يغوص فى محيط ما قاله له (جمصان)..كان –كعادته منذ أيام الجبل– يثق بعقله الصغير الحاذق وعلمه بشئون الدنيا مما أكد يقينه بأهمية ما أخبره به منذ لحظات..لكنه من حين لأخر كان يسترجع ما تعلمه من ألاعيب السياسة التى طالما كان (جمصان) يتحاكى بها فى جلساتهم بالجبل..وكانت هذه المساندة الغربية تقلقه..فهمه للحياة هو أيضا علمه ألا شئ بلا ثمن..لكن –كذلك– اعترف لنفسه أنه رضا (جمصان) بهذا الأمر قد جعله مطمئنا.....

"يا حاج (محمد)"

يستدير وقد فاق من بحر أفكاره لتجف من عليه قطرات حيرته وقد رأى خفير الدار يناديه..كان شابا عديم الحيلة وكان يمت له ولزوجته بصلة قرابة بعيدة..هكذا جعل منه خفيرا للدوار عل هذا يحميه يوما من نوبات الزمن واستخفاف الناس..قال الخفير:

"كله بقى تمام"

"جهزتوا المكاتب والناس اللى هتلف على البيوت؟"

"تمام جنابك"

"عايزهم يبدأوا من بكرة الصبح..وعايز الكلام ده يتصور ويتذاع على التلفزيون..عايزين الناس تفرح..وصناديق الشكاوى..الإعلان بتاعها يطلع كل ربع ساعة..مفهوم؟"

"تمام يا حاج"

"وجهزلى العربية دلوقت"

"خير يا حاج؟"

نهض الحاج (محمد) وقال:

"هلف على البلد كلها..عايز أتكلم مع الناس بنفسى..لازم الناس يحسوا إننا قريبين منهم وإن الكلام بجد"

"يا حاج (محمد) الناس كلها عرفاك كويس وبتحبك..دا أنت منهم وعليهم"

"وأيه يعنى؟..ما (زيد) بتاع مجلس الشعب كان من هنا برضوا"

ثم دار إلى غرفته وقال:

"جهز العربية يا بنى الله يرضى عليك..ولا أقولك..أنا هتمشى أحسن"

***

مكتب رئيس مجلس الوزراء....

رئيس مجلس الوزراء جالسا خلف مكتبه..يحدق فى وجه وزير خارجيته ويده المرتعشة ترتشف من الماء لتبل شفتيه الجافتين

بقطرات باردة..كان الأخير متوترا بدوره وقد راحت أصابعه المكتنزة تنقر على طرف المكتب فى إلحاح..قال فى قلق:

"زى ما بقولك يا فندم..الإجابات كلها كانت متحفظة..وتحمل كل المعانى..لكن الأكيد إن أمريكا كالعادة مش بعيدة عن الصورة..يعنى إما إنها مع الناس دى أو على الأقل مدياهم الضوء الأخضر"

جفف رئيس الوزراء عرقه ثم قال بكل ما استطاع أن يجمعه من حزم:

"أرفع تقريرى للرئيس على أسس كده؟"

"أكيد يا أفندم..والأيام هتثبت لحضرتك إن الأمريكان ورا اللعبة ده..حاجة زى قصة أفغانستان..علشان كده أن أحب إن حضرتك تحظر سيادة ال..."

"مفهوم يا سيادة الوزير..مفهوم..متشكر..ممكن تتفضل"

قاطعه رئيس الوزراء فى جفاء..كان ذائبا فى التفكير..هكذا نهض الوزير وأغلق سترته....

"العفو يا فندم".

ثم استدار منصرفا بينما رفع رئيس الوزراء سماعة هاتفه وقال:

"هاتلى يا بنى وزير ال..هو كان الدفاع ولا الداخلية؟..هاتلى اللى كان بيجهز للهجوم"

كان يتكلم..كذلك كان وزير الخارجية..كان قد بلغ سيارته فى لحظات وكان هاتفه فى يده..كان يقول فى توتر:

Yes sir,,they have received your message

***

صباح اليوم التالى.....

مبنى المحافظة القديم.....

نظر (جمصان) إلى المرآة طويلا يتأمل مظهره الجديد وكان (ضاحى) بجواره..كان واقفا فى حلة تكاد تنفجر تحت دفع جسده الضخم وقد حدق فى (جمصان) الذى تغير شكله بشدة فى حلته الفاخرة..هكذا قال (جمصان):

"أيه الأخبار يا (ضاحى)؟"

"كله تمام يا باشا..الدكاترة موجودين فى القاعة..وبقالهم ساعة منتظرين"

"وأخبار الرجالة بتوعك؟"

"جهّزت مجموعة كويسة من رجالتى من اللى خلطوا كتير مع أهل المدينة ويعرفوا يلبسوا ويتكلموا زيهم بالظبط..دول من بكرة هيكونوا جوا الجامعة..منهم اللى هينفع طلبة واللى هينفع عمال وخلافه..دول هينقلولونا دبة النملة جوا الجامعة..وكمان فيه طقم جديد بجهزه علشان يتوزع جوا البلد ويؤدى دوره".

"أهم حاجة عندى الجامعة يا (ضاحى)..الخطورة كلها بتيجى من هناك..من الدكاترة والطلبة وحتى العمال..فاهم يا (ضاحى)؟"

"فاهم يا باشا"

عاد (جمصان) إلى أخر نظرة فى المرآة..ثم قال:

"أتكلنا على الله يا (ضاحى)".

"بعد إذنك يا باشا"

أستوقفه فتوقف..

"خير يا (ضاحى)"

"أنا من رأى إنك تخش عليهم ومعاك اتنين ثلاثة من رجالتى..كحراسة يعنى..دول عمليين زى البغال والسلاح اللى فى أديهم هيدى لحضرتك هيبة برضوه"

ابتسم (جمصان) وقال:

"مظبوط يا (ضاحى)..بس مش دلوقت..أنا محتاج للناس دى..والبلد دى كمان محتجاهم..واللى هيخليهم فى أيدى مش خوفهم منى..لكن رفضهم للأوضاع السابقة..هو ده سلاحى لعقولهم"

لم يبدو على (ضاحى) أنه قد فهم شيئا..فاستدرك (جمصان):

"ثم إن التلفزيون هيصور .. مش هيكون منظر يعنى"

هكذا أفسح له (ضاحى) وتركه يتقدم فى ثقة نحو الباب..يفتحه..يتقدم خطوة نحو القاعة الفسيحة..هل كان متوترا..لا أحد يدرى لكنه لو كان كذلك فقد أجاد إخفاء ما بداخل روحه..الأضواء المبهرة والقاعة الفسيحة الفخمة التى لا تتماشى مع فقر الوطن..ثم هؤلاء الذين يملأون القاعة..فكر لحظة..نظر إلى الوجوه..كانوا ينهضون فى بطء حريص..أعينهم تفكر فى صمت وكأنهم يقولون من أنت؟..هى نظرة الخوف من المجهول..مما تخفيه هذه الأعين وهذه الحلة..هكذا أدرك أنه – بلا شك – قوى قوى وأن عليه ألا يخسر هذا..تقدم خطوة ثانية واثقة ثم وقف عند المنصة....

كانوا صامتين..

هكذا تكلم..قال كلمة أعدها الليل بطوله كى يبهرهم:

"السادة الأفاضل..أهل العلم..بعد سنين طويلة جدا تم تهميشكم فيها إلى أقصى الحدود..وتم التعامل مع علمكم وثقافتكم الأستثنائيين كشئ عادى..وترك أمر إدارة هذا البلد لرجال الأمن والجيش وأصحاب المال دون النظر إلى معايير العلم والثقافة والفكر..جاء الأوان لكى يقدم الوطن لكم إعتذاره..وبشدة"

هكذا رأى ما كان يريد أن يراه فى أعين الحاضرين.....

ابتسم بداخله فى ثقة.....

وهكذا أكمل............

القرية من جديد....

وهكذا جلس (الغريب) منتشيا.....

لم يكن أى من الأحداث التى سبقت يمسه بشكل شخصى..فقط هو الآن شديد الرضا..هو الآن حر..وكان يدرك محوارية ما عليه أن يفعله..الآن هو مهم أيضا...

كان جالسا على كرسى ضخم بمنزل أحد الأعيان الذى صار من اليوم منزله..جسده القح يجد أخيرا أثاثا حنونا يحتويه..أمامه عدد من الرجال والنساء من أعمار متنوعة..أثواب وأعمار مختلفة..وكانوا جميعا يحدقون فى بلاهة وخوف كالجمال.....

"أنا (الغريب)..وزير الداخلية"

قالها فى صرامة..واستمع لصوت ريق جماعى يُبتلع..هكذا أكمل:

"وأنتم أول مجموعة هتشتغل معايا..طبعا (ضاحى) هو اللى أختركم بنفسه..كلكم مقطعوين من شجرة وينفع تتحشروا فى أى حتة..ودلوقت أنتوا بقيتوا تحت تصرفى"

ثم هب واقفا بينهم وراح يتأملهم فى تركيز..لم يكن ينتظر معجزة ما لكنه حاول..أشار لواحد منهم تبدو عليه بعض من خبرة الحياة..ربما تصل إلى حد الخسة كذلك..هكذا اندفع هذا الشاب فى نفاق واضح وقال:

"أمرك يا باشا يا كبير"

لم يبتلع (الغريب) أسلوبه المبالغ فيه كثيرا لكنه -كذلك- لم يجد الأفضل...

"أسمك أيه؟"

"(عوض) يا باشا"

"بص يا (عوض)..أنت المسئول عن المجموعة دى..وأنت اللى هتكون على إتصال بيا..مفهوم؟"

انتشى الفتى....

"مش هتندم أبدا يا باشا"

"عايز أعرف الأمور فى البلد ماشية أزاى..الهدف من وراكم مش الوز على الناس..أنا أحب بس أطمن على رضاهم عن الحكم ورد فعلهم على أى حاجة بنعملها..مهمتكم الأساسية هى الرقابة على تنفيذ القرارات اللى أحنا بنعملها..هل فعلا الخدمة بتوصل للناس..هل فعلا مفيش مجاملات أو محسوبية..عايز أطمن إن كل حاجة ماشية زى ما الناس عايزة".

تعجب (عوض) لحظة لكنه تظاهر بالفهم..شد عوده وقال:

"أمرك يا باشا"

"عايز أنبسط منك يا (عوض)..وكمان الريس (جمصان)..دا هيتابع الموضوع بنفسه..وهيتابع التقرير اليومى..فاهم؟"

"أمرك يا كبير"

أشار لهم (الغريب) كى ينصرفوا ففعلوا..كان منتشيا بدوره الجديد فى الرقابة على الحكومة نفسها..كان هذا حين رن هاتفه.....

"أيوه يا حاج (محمد)..الاجتماع؟..أنا فى الطريق"

كان يتكلم حين رأى (عمرو أبو الليل) من خلف نافذة بيته..كان بالخارج يصرخ فى وجه من حوله.....

"أنتوا لسه مخلصتوش..الاجتماع بعد ربع ساعة..حرام دانا مانمتش من أمبارح..يا مجانيييين"

كان البائس يجرى خلف رجاله بنفسه فى رحلة مرورهم بالبيوت..كانوا يمرون بالاستمارات فى تعجل وهو يجرى بالسلاح خلفهم....

"يا مجاااااانيييين"

***

القصر الجمهورى.....

"سعادة الباشا"

كان رئيس الوزراء يسير مهرولا عبر الممر الطويل حين لحق به وزير الداخلية..صافحه فى سرعة ثم تحركا معا مسرعين....

"اهلا سيادة الوزير.."

"تعتقد يا فندم الريس هيفكر فى الموقف أزاى؟"

لم يجب..فقد زفر وقال:

"كلها ثوانى ونعرف..وزير الدفاع جوه ومعاه وزير الاقتصاد..الاجتماع مصغر وفى خلال دقايق هنعرف كل حاجة"

"ووضع القوات؟"

"أوامر الريس"

ثم توقف أمام الباب الرئيسى ومعه وقف الوزير.....

كانت لحظات عصيبة......

***

القيادة الأمريكية

يتحدث صوت حازم من خلال الهاتف:

"أوامرك سيادة الرئيس"

"فعلا الموضوع غريب سيادتك..بس القصة مؤكدة..وملهاش أى خلفيات دينية أو أيدولوجية..وتحريتنا لحد دلوقت بتأكد إن مفيش أى صلة بين الكيان الجديد وبين أى دولة معادية أو حتى صديقة.. خاصة الدول الإسلامية والشيوعية".

تراجع الرجل بظهره مرتاحا وهو يستمع..ثم أجاب ببطء:

"قرر حكيم من حضرتك..يا ريت يا فندم ننتقل معاهم للدرجة الأعلى".

"أكيد..التقرير النهائى لموقف الفئة دى هيكون قدام المكتب فى خلال ساعة..بعدها يا فندم هننتظر من حضرتك تحديد الخطوة القادمة".

ثم علت وجهه ابتسامة عملية وهو يقول:

"طبعا يا فندم مدرك..دى ضربة العمر".

بدأت ابتسامته العملية تتلاشى تدريجيا من فرط الإنصات والتركيز..هكذا رد وقد التمعت عيناه مع تتابع أفكاره:

"أكيد..لو حضرتك قررت إنك تتحرك خطوة لقدام هنكون حريصين إننا نوصل للعالم وبصورة غير مباشرة إننا وراهم من الأول..الرسالة واضحة يا فندم..الكل لازم يعرف إحنا مين..ولازم يخاف"

"تمام يا فندم".

ثم....

تيت تيت تيت.....

***

(٩)

مبنى المحافظة القديم.....

القاعة الرئيسية.......

(جمصان) واقفا عند المنصة..عيناه فى أعين الجموع فلا تعرف لمن تنظر....

"السادة الأفاضل..أهل العلم..بعد سنين طويلة جدا تم تهميشكم فيها إلى أقصى الحدود..وتم التعامل مع علمكم وثقافتكم الأستثنائيين كشئ عادى..وترك أمر إدارة هذا البلد لرجال الأمن والجيش وأصحاب المال دون النظر إلى معايير العلم والثقافة والفكر..جاء الأوان لكى يقدم الوطن لكم أعتذاره..وبشدة"

كانت النظرات عاجزة عن الفهم......

تكلم (جمصان)....

"بدون تجميل للحديث..أنا هكلمكم ببساطة لأنى أكيد مش هأقدر أجاريكم لا فى الثقافة ولا فى طلاقة اللسان..أنا جمعتكم لأنى بحاول إنى أوصل بلدى لأعظم وأكبر مكانة تستحقها فى نظرى..أنا كنت بنتمى لدولة من العالم الثالث وكنت واحد من القطيع.. دلوقت أنا صاحب قرار وقرارى إن بلدى مش هتكون فى وسط العالم الثالث..الطموح أكيد مش بفلوس..علشان كده مش هستخسر فى نفسى الطموح..ولا المفروض حد مننا يستخسر فى

نفسه الطموح..الطموح إنى أكون رئيس لدولة من العالم الأول..والطموح إنكم تكونوا أساتذة فى جامعات عالمية..إن إسمك واسم جامعتك يكون ليهم مصداقية فى العالم كله"

"فى رأى إن شرائح المجتمع فى بلدنا اتغيرت كتير فى الفترة الأخيرة..لو راجعتم أسماء كبار المسئولين فى كل المجالات حتى الرياضة والسياحة هتلاقى أسماء رجال الأعمال..الشرطة..الجيش..نادرا ما نجد أسماء من العلماء وأساتذة الجامعات..كنت دايما بسأل..ليه؟..رجل الأعمال بزنسمان هايل..رجل الشرطة ليه حس أمنى كبير..رجل الجيش مقاتل على أعلى مستوى..لكن أيه علاقة ده بالإدارة والتعمير والرياضة؟..وليه دايما نفس الفئات..العالم كله بيقدر أساتذة الجامعة وبيحترمهم..لأنهم علماء..فى كل مجال..هندسة..زراعة..طب..تجارة..وأوقات كتير إداريين شطار"

"مرة زمان أتكلمت مع واحد عزيز عليا..كان معيد فى كلية التجارة..سألته..وللأسف رده كان قاسى..قلى إن الجامعة معدتش زى زمان..ودورها السياسى والوطنى وحتى العلمى اللى كان بيأهلها إنها تقود مجتمع خلاص انتهى..المستوى العلمى للجامعة انحسر بشدة بعد انحسار دورها السياسى..وللأسف أيضا ده معروف لصالح مين؟"

"أعتقد إن الوقت قد حان إننا نستغل العقول اللى الدولة صرفت عليها ملايين لصالح الدولة..أنا مش مستعد بعد دلوقت إنى أسيب البلد لحد مش مؤهل إنه يمسكها بحجة الالتزام والانضباط..كذلك أنا عايز أعيد بناء الجامعة وعقلية أبنائها وعايز أرجعلكم قيمتكم الحقيقية فى المجتمع..وده حقكم..لكنى برضوه منتظر تضحية مماثلة منكم علشان نبنى ظروف جيدة للبلد"

هنا انقلبت الوجوه..لم يحب أحد تلك الكلمة الأخيرة..لكن (جمصان) استدرك فابتسم وأكمل:

"إنكم كمان تحترموا البلد..وكيانها..وتنتموا وبصدق للجامعة اللى أنتوا فيها..تقبلوا سياستنا الجديدة لتطوير الجامعة وتساعدونا فيها..وتساعدوا فى تحقيق مرحلة انتقالية ناجحة نحو إدارة الجمهورية..يا ريت ننسى الذات والفلوس والماديات..ونفكر بطريقة زمان..يوم ما الجامعة دى أتبنت على أكتاف رجال مخلصين كانوا بينظروا للغرب بغيرة وكانوا بيتمنوا يقلصوا الفرق"

تباينت ردود الأفعال فى العيون..فصمت للحظة لا تسمح بكثير من التفكير.....

"أنا جمعتكم لأنى محتاجكم لخطوة تغيير كبيرة..بوضوح أكثر بحاجة ليكم لتكوين مجالس استشارية رفيعة المستوى للوزارات المختلفة..فى الواقع أحنا مخترناش أسماء محددة لكن أختيارنا مش هيعتمد على أصحاب المناصب الحالية لأنى عارف إن اختيارهم مبنى

على الأقدمية وشوية حاجات تانية أنا مش بحبها..دائرة الاختيار هتشمل الكل من المعيدين وحتى الأساتذة المتفرغين..طبعا المجالس دى هتكون بداية..وتمهيد لإحتلالكم أماكن قيادية عديدة فى البلد طبقا لاختصاصتكم وكفائتكم.."

ثم صمت برهة..وأضاف ببطء:

"منتظرين منكم كثير..اتمنى تفاجؤنا بحماسكم"

تعالى تصفيق أعلى من ذلك الذى صحب دخوله..كان تحديا له وقد نجح حتى أنه قد كتم تنهيدة ارتياح كادت تخرج من بين شفتيه بصعوبة..كان بحاجة جمة للاقناع..كان بحاجة لدعم هؤلاء القوم......

من بين الأصوات صدر صوت متحشرج..متردد نعم لكنه شجاع..وعنيف أيضا......

"حضرتك جاينا علشان كده فعلا..ولا علشان تحيدنا وتحيد طلبة الجامعات من قضية الإنقلاب؟"

استدارت الرقاب دفعة واحدة إلى مصدر الصوت العنيف والعيون تطلق صافرات التحذير والذعر..تعالت الهمهمات بينما توقع البعض أن يسمع طلق النار..البعض انكمش فى مقعده بالفعل.......

ابتسم (جمصان) ابتسامة رحمة وقال:

"أستاذى الفاضل...؟"

"د عبد المنعم إسماعيل أستاذ بكلية التربية"

"دكتور عبد المنعم..أعتقد إنى مش محتاج أحيدكم بالطريقة دى لأنكم عشتم سنين متحيدين أنتم وطلبتكم..وبالقوة..وحضرتك فاهم أكيد.. حتى الاعتراضات والأصوات الضعيفة مكنش بيكونلها صدى..أنا بعرض عليكم العرض ده بإخلاص حقيقى يا دكتور"

صمت الرجل فى حين قال (جمصان) فى حزم:

"حضرات الأفاضل ده مجرد إجتماع مبدئى للتعارف..لكن اجتماعنا الحقيقى هيكون لما أزور الجامعة السبت القادم..هلتقى بيكم تانى وهبلغكم باختياراتنا وخططننا لتطوير الجامعة".

"تقدروا تتفضلوا..فقط هستأذنكم ثوانى فى الدكتور عبد المنعم..شكرا لحضوركم".

هكذا بدأ الجمع فى انصراف أقرب للفرار وأعينهم متعلقة بالدكتور (عبد المنعم)..كان الأخير ثابتا فى مكانه وعيناه تتجنبان النظرات المشفقة من عيون المنصرفين..توترت عضلاته لكنه تكتم وتظاهر بالثبات..فقط نظر لجمصان الذى ظل يحدق فيه حتى خلت القاعة......

من ثم أشار له......

"د عبد المنعم"

ابتلع الأخير ريقه وقال:

"أنا قلت وجهة نظرى..حضرتك اللى بتحاول..."

"أنا مش ضد وجهة نظرك..من حقك إنك تشك..أنا مش هغير الصورة اللى اترسمت من قرون فى ثوان..لكنى بجد بحاول..وهتعرف فى يوم من الأيام إنى صادق..أنا كنت عايز رأيك فى نقطة ثانية"

"نقطة أيه؟"

قالها متعجبا..هكذا أشار إليه (جمصان) كى يجلس فى تسامح..جلس ببطء..هكذا تكلم الأول وقد مال على الأخير كصديق:

"أنا واثق من علمك وقدرتك على التفكير والتحليل..علشان كده حابب استشيرك بصورة مش رسمية..عن الفاكس ده"

كان د (عبد المنعم) مذهولا من الحديث لكنه لم يعقب..ناوله (جمصان) الفاكس فتناوله..وقرأ ما فيه....

تركه (جمصان) ثوان ثم سأله:

"أيه رأيك؟"

"حضرتك عايز تعرف رأي الوطنى ولا رأي السياسى؟"

"أكيد السياسى هو اللى محتاج رأى حضرتك"

صمت د (عبد المنعم) لحظة مفكرا ثم همس وهو يقابل نظرات (جمصان) بعينيه:

"وإيه اللى يخليك تتصور إنى هكون مخلص فى نصحتى لك؟"

نظر إليه (جمصان) وقال ضاغطا على حروف الكلام كمن توقع:

"لأن عندك الشجاعة الكافية إنك ترفض تكون معايا..حتى بالنصيحة"

هكذا اهتز د (عبد المنعم)..شرد ثم تغير وجهه فجأة ليكتسب قناعا جدا واثقا:

"رأى إن العرض ده فرصة ذهبية لحماية دولتك..أكيد قوات الحكومة على حدودك منتظرة الإشارة..أمريكا عارفة كده..وطبعا مصالحها فى المنطقة هتخليها تحاول تستغل الوضع..أنا دلوقت بس فهمت إزاى محدش تصدى لإنقلابك..العرض الأمريكى أكيد وصل للحكومة وده هو اللى بيحميك حاليا..المطلوب منك تتعامل مع العرض الأمريكى بإيجابية وبأسرع وقت ممكن بحيث تقتنع الحكومة إن أمريكا هى القوة المساندة ليك وبالعكس..إن أمريكا هى اللى ورا الموضوع من البداية..حاول تحقق ده من زيارة..تقارير تلفزيون..أى حاجة..ونفس الوقت توصل للطرف الأمريكى إننا سعداء بالتعاون ده ما دام مش هيأثر على أهداف الثورة..يعنى توصلهم سعادتك بالتعاون ولكن من غير تنازلات..لازم تحسس أمريكا إن المصلحة مشتركة ومفيش طرف أقوى وطرف أضعف".

هكذا صمت (جمصان) وشرد للحظة كى يهضم ما سمع..بينما صمت د (عبد المنعم) وتأمل وجه الأول فى تركيز......

"شكرا د (عبد المنعم)..رأى طيب وأكيد هنستفيد منه".

ثم أشار له كى ينصرف..هكذا قام د (عبد المنعم) مرتبكا....

"بس رجاء د (عبد المنعم)..كأنك مسمعتش حاجة"

قالها بهدوء..ولكن بصرامة......

***

القرية....

دوار العمدة....

كان الدار مزدحما كالقطار..عن قطارات الدرجة الثالثة أتحدث بالطبع..وكانت العصبية سائدة..كان موعد الاجتماع....

من بين الأجساد يبدو جسد الحاج (محمد) القوى وسط الوزراء الجالسين على الطاولة..كانوا حوله كالشمس وقد شمر جلبابه وراح يتكلم:

"هدوء يا رجالة..واضح إن كلكم موجودين وحاضرين..أحب أسمع أخبار حلوة"

هكذا هب (عمرو) من بينهم وشظايا لعابه تتطاير فى كل صوب:

"حلوة؟..طبعا حلوة..مش حلوة ليه..لازم الأخبار تكون حلوة..أمال أنا مانمتش من ثلاث أيام ليه؟..علشان تطلع أى كلام ولا أيه؟..دى أخباااااااار زى الفل..دى..".

"تمام تمام يا (عمرو)..مقلناش حاجة..أنا بس بعد إذنك عايز أعرف إيه هى؟"

"ليه؟"

"ما هو يا بنى أنا رئيس الوزرا"

"أه أه تمام..هقولك"

"لو مش عايز بلاش"

"لا هأقوووووول..هو أنا صغير..هأقووول طبعا"

ثم وقف وأردف:

"أنا جمعت رجالتى كلهم ولفوا على البلد بيت بيت وحتة حتة بالاستمارات..وجمعوا معلومات كويسة عن الحِرف اللى الشباب هنا بيعرف يشتغلها ومحتاجين فلوس قد أيه علشان يمشوا شغلهم ده..وكله يا ريس ملا الاستمارات..مفيش كلب فكر يزوغ..وفى ظرف أسبوع يكون الواد (فضل) بتاع الكمبيوتر طلع النتايج علشان نحدد المشاريع اللى هنبتدى بيها ".

"أهم حاجة يا بنى أوعى يمكن رجالتك حاملوا حد أو ظبطوا حد..دى أكثر حاجة شدد عليها الريس".

"عيييييييييييييييييييييييييب..عيييب"

قاطع الحاج (محمد) صوته الجنونى وأشار ل(أبو هاشم) الذى صاح:

"بس يا ابنى مفياش حيل أرفع صوتى"

ثم استدار للحاج (محمد) وقال:

"كله تمام..أنا مريت بالوحدة الصحية بنفسى وقابلت الدكتور اللى فى الوحدة"

"هو لوحده؟؟"

"لا بس هو اللى كان موجود..الخمسة وثمانين ممرضة والثلاثين موظف والعشرين عامل الباقيين ماضيين حضور على الورقة بس..كويس إنى لحقت اثنين منهم كانوا على السلم وكان فيه ممرضة شايلة ابنها وكانت بتجرى ماشفتنيش".

"وبعدين؟"

"رغم إنى كنت بغلى لكنى جبت الواد الدكتور واتكلمت معاه..وعرفت منه حاجات كثير..الولد كان صريح معايا يمكن لدرجة الهبل..ده اللى شجعنى أناقش معاه أزاى نطور المخروبة اللى هو قاعد فيها دى..ما هو مينفعش نقعد فى بيوتنا ونقترح..اللى يعرف بجد هو اللى قاعد فى المكان..الواد كان متحمس بس قالى

أهم حاجة نطور بأى حاجة غير السيراميك..البلد كلها أتطورت بالسيراميك..دى بقت ثورة السيراميك.. ده اللى قاله".

"وبعدين؟"

ناوله الرجل رزمة من الأوراق وقال:

"دا تقريرى بخصوص اللى شفته ومعاه أفكارى للتطوير..وإن شاء الله بمجرد ما تتعرض على الريس ويوافق هنتصل بالتلفزيون..ونجيب المخرج علشان يعملنا حملة لتعريف الناس بالتطوير والخدمات الجديدة علشان ميضحكش عليهم..ربنا يقدرنا ونعمل...".

قاطعه (عمرو) كالمجنون:

"بس أنا خدت المخرج علشان الحملة بتاعتى".

"يا بنى هو أنت هتأخدوه تتاويه ولا هتخنقه وترميه فى الترعة..ما هو هيفضل معانا وأنا يا سيدى هأخدوا بعدك".

هنا تعال الصوت الحنجرى الغليظ:

"وأنا يا عم (محمد)".

"أيوه يا (أبو الليل)"

ضرب (أبو الليل) طلقتين فى الهواء فأخرس الجمع....

"الله ينور يا أبا".

كان هذا (عمرو)..ثم تقدم (أبو الليل) نحو الحاج (محمد) خطوتين وقال:

"يا حاج أنا مش عارف أتحرك..هوا ينفع أحقق حاجة من غير اتصالات الريس..أنا عايزك بس توصلوه إنى محتاج سكك للإتصال بدول العالم".

"محتاج أيه بالظبط؟"

صمت (أبو الليل) لحظة كمن يفكر..ثم قال:

"نمر التليفونات..!!"

"نعم؟"

انفعل (أبو الليل)......

"أيوه نمر التليفونات..وأنا هجيبها منين يعنى!!"

"طيب وأنت عايز تتصل بمين يعنى؟"

"أنا سألت وأتأصت وعرفت إن أكبر حاجة فى العالم..هى أمريكا وروسيا وفيه كمان أوروبا..بلغ الكبير إنى عايز أكلم بتوع أمريكا وبتاع روسيا كمان..!!"

"بس؟"

"ما بعدها الدول هتجر بعضها..فيه الإنجليز..والطلاينة..بس واحدة واحدة..دا أنا واعد العيال كلها بعقود عمل..هطلع عيل يعنى؟"

ثم ناول الحاج (محمد) بعض الأوراق....

"عندى واد حدق اسمه (زكى) هو اللى حط البرنامج علشان أول ما السادة الضيوف يجيوا..نفسحهم ونروقهم".

ثم سعل وأكمل:

"بس تشفولنا النمر".

هنا تدخلت (هانة)..قالت:

"وأنا يا ريس"

"أنا مش ريس يا (هانة)..أنا رئيس وزرا".

قالها فى غيظ فعقدت حاجبيه لكنه استدركت ما دار فى ذهنها بسرعة وهمست:

"أنا عن نفسى يا حاج حطيت عنى على حتة أرض علشان أعملها مكتبة..ونجيب فيها..."

"شكرا شكرا يا (هانة)"

ثم استدار برأسه إلى (عمرو) وقال:

"بقولك يا (عمرو)..هو الأستاذ (صدقى) اللى كان ناظر مدرسة لسه عايش؟"

"معرفوش؟..والله ماأعرفه..واللللللللللللله ما أعرفه"

هكذا اندفع (أبو الليل) يعرقل ابنه كى يخرس..وقال:

"عايزه فى أيه يا حاج؟"

"أبدا..سيادة الريس كان حابب يمسكه التعليم..اتصرفوا وجيبوه لأن الريس عايز المناهج تتغير فى خلال اليومين دول..المدارس قربت واللى بيخدوا العيال دلوقت ده مش هينفع"

"هى المدارس قربت؟"

"الريس هو اللى قال".

"تمام تمام...بس أنا فاكر إنى طخيت الأستاذ (صدقى) ده قبل كده"

"والعمل؟"

"يا عم مسك (عمرو) التعليم..ما هو بيعرف يفك الخط".

هكذا نهض (عمرو) من سقطته وقال:

"أنا قدهاااااااااااااا"

"قد مين؟..يا سيدى مش وقت التعليم خالص..الريس (جمصان) مش مستعجل"

ثم استدار إلى الجمع من الوزراء ورجالهم وصاح:

"الصوت يا رجالة..الصوت"

***

(١٠)
الإعلام اليوم

جريدة الإجرام وهى جريدة حكومية:

"انتهاء أحداث الشغب بشولاط..عمدة القرية يشكر الجهات الأمنية على سرعة التدخل والحفاظ على سلامة المواطنين"

جريدة ضيق البلعوم وهى جريدة معارضة:

"استقرار الأمور بصورة نهائية فى شولاط وقيام الجمهورية..وضربة قاسية للنظام"

جريدة صوت شولاط وهى جريدة جديدة حلت محل الجريدة المحلية السابقة:

"قرارات عظيمة لقيادات النظام الجديد..الوزراء بأنفسهم يسيرون وسط الجمهور للتأكد من سير العمل وسط ثورة من الحب والتأييد".

***

قناة البحيرة:

يستدير المقدم بكرسيه اتجاه الشاشة الأولى ويقول:

"أستاذ هشام العضو النشط بالحزب الحاكم..ما ردك عما تردد من عجز الجهات الأمنية التام عن التدخل لوقف المهزلة الحادثة فى شولاط؟..وما يعكسه من تعرض الحكومة لضغوط لكى تتعامل مع الموقف بدبلوماسية ودون اللجوء للقوة؟"

يظهر وجه عصبى على الشاشة يميل نحو الكاميرا ويقول فى انفعال:

"نحن لا نقبل بأى طريقة التلاعب بالألفاظ..ضغوط على أيه بالظبط؟..أحنا قلنا أكثر من مرة إن الموضوع لا يتعدى مجرد أحداث شغب عادية والأمن الداخلى مسيطر عليها..القصة مش محتاجة أكثر من قوة الأمن اللى موجودة فى المركز..وهى فعلا مسيطرة..جرى أيه..ده حتى......!!"

"حسنا..حسنا"

ثم يدور ويتحدث إلى الشاشة الثانية:

"أستاذ (علاء)..بصفة حضرتك من قادة حزب (الريحة فاحت) المعارض..تعليقك على أحداث (شولأط) وما يقولوه السيد (هشام)؟"

"حزب مين!!!!!"

كان هذا صوت الشاشة الأولى ثم تم قطع الصوت كالعادة..هكذا تكلم الصوت من الشاشة الثانية وكان غاضبا ايضا:

"مش عارف بصراحة الدماغ بتاعت الحكومة فيها أيه؟..كذب كذب..ما انتهى عهد الأولى والثانية والناس دلوقت بتتفرج على الفضائيات..يعنى خلاص محدش بيسمع الأكاذيب دى"

ثم سكت..هكذا اعتدل المقدم وقال:

"أستاذ علاء..هل يوجد لديك تعليق إضافى؟"

"آه..آه..أكيد..يا جماعة متنسوش إن أى نظام ناجح فى أى دول فى العالم بيعتمد على الصدق..على الجدعنة..على الشفافيييييييية"

"لا إله إلا الله"

***

القرية.....

راح (بسطاوى) يضرب فتات الأرض بفأسه كالمقاتل..بجواره كان (سعد) وكان واقفا فى وجه الشمس قاطبا وجهه من لفحها والزجاجة على فمه..جرع جرعته ثم قال:

"تصدق يا (بسطاوى) مين عدى علينا "

"مين؟"

"الحاج محمد بذات نفسه..كان بيتأكد إن كل حاجة تمام وإننا مبسوطين".

"والله شكلك بتفشر".

استفذ سعد فأقسم:

"والنعمة دى حصل".

"طب كمل كمل".

"هوا حلنا على الظهر وكان..."

رمقه بسطاوى قائلا:

"أقصد كمل شغل يا خفيف"

***

قاعة مجلس الوزراء.....

رئيس الوزراء على قمة الطاولة..وجهه شاحب كالأصفر والأنفاس الجائعة من حوله تقطع عن صدره ذرات الهواء..كان يقول:

"بخصوص الأزمة الأخيرة".

خرج صوته هزيلا كطرف سيجارة مشتعلة..فتاته يتساقط بين الجالسين..كانت الهزيمة هي الوصف الدقيق....

"الموضوع حاليا بقى معقد..محتاج حكمة وخطوات محسوبة".

تحدث وزير الدفاع فى صلابة:

"وضع قواتى حاليا؟"

"هتتراجع مسافة عشرة كيلو..وهتثبت فى مكانها..المكان ده من كلامك قريب من العمار..وده مطلوب".

"أفهم من كده إن الموضوع هيطول".

"التفاصيل كلها مع سيادة الرئيس..فى اجتماعكم المغلق يا سيادة الوزير".

"مفهوم".

هكذا قال ثم صمت بوجه مقتضب..وتحدث وزير الداخلية من خلفه:

"وبالنسبة لقوات الأمن وبعد الأحداث الأخيرة..أحب أعرف المطلوب مني تحديدا..خاصة بعد تراجع قوات الجيش".

قالها وهو يضغط على الحروف الأخيرة فى قسوة ويلقى نظرة رزيلة على الحاضر أمامه..هكذا تنهد رئيس الوزراء وبعثر المزيد من الرماد...

"ولا حاجة..خليكم على استعداد مش أكثر".

ثم استدار ببطء كتمثال حجرى..كان الصمت كحجارة ذائبة فى الهواء.....

"سيادة وزير الإعلام.."

نظر إليه الأخير نظرة بائسة..

"مطلوب منك تفرقع أى قضية اليومين دول..أى حاجة..حدث رياضى..اعتداءات..تصريحات سياسية غربية مستفزة..عايزين الحدث ووراه البرامج التحليلية وخلافه..بس يكون الموضوع كافى يغطى أكثر من أسبوعين".

تنهد وزير الإعلام كمن عاد إلى الحياة..عبارة تقول: "بسيطة"

هكذا تأمل رئيس الوزراء المجلس فى نظرة سريعة..سؤال طاف برأسه قبل أن يكمل هذا الاجتماع الكئيب..لماذا يفكر الجميع بمبدأ الحساب...؟؟؟

لكنه ابتلع ريقه وواصل:

"حد عنده حاجة يقولها؟"

***

القيادة الأمريكية

المسئول الكبير يعدل وضع ياقته ويحدق فى وجه الجالس أمامه..مسئول أمنى على الأرجح..كان الاجتماع قد دام ما يقرب الساعتين وقد قرر المسئول أن ما توصل إليه حتما يكفى..هذا قال كلمته:

"يعنى رأيك إننا نقدر نأخد خطوة للأمام فى علاقتنا معاهم".

"أكيد..هو ده الوقت المناسب".

"إقتراحك".

"دعوة".

رفع المسئول الكبير حاجبه كأنه عقله يفكر....

"أوكى.."

ثم أعقب:

"أبعت دعوة رسمية لرئيسهم..زيارة رسمية الأسبوع القادم".

هكذا ابتسم المسئول الأمنى بصورة رسمية ولم يتكلم..فقط أستأذن وسحب ورقه معلنا انتهاء مهمته......

***

مبنى المحافظة القديم.....

(جمصان) سائرا وفى يده حقيبة أوراقه..تتسارع خطواته نحو مكتبه وإلى جواره يعدو (ضاحى) حاملا حفنة من الأوراق فى ملف وقد انكمشت أنفاسه وصار وجهه أقرب إلى الإزرقاق......

"تقارير الرجالة يا باشا".

"مش عايز أسمع اللى نفسى فيه..عايز أسمع اللى بيحصل يا (ضاحى)".

هكذا تردد (ضاحى) لكن نظرة (جمصان) التى حملتها استدارته حسمت له الكثير من أفكاره.....

تكلم وكانا قد دلفا إلى المكتب فجلس (جمصان) ومن ثم جلس هو...

"واللى جامع المعلومات دى...؟"

قاطعه (ضاحى) كمن يُمتحن:

"كلهم طلبة جامعة..بلديتنا..ومعظمهم معروف عنهم التفوق والذكاء".

ابتسم (جمصان)..ابتسامة معلم راض عن تلميذه....

"أنا سعيد بيك يا (ضاحى)..رغم إنك تقريبا متعلمتش..لكن دماغك توزن بلد..ده يهمنى"

لم يظهر (ضاحى) تعبيرا واضحا يرد به على ما سمع..فقط نظرة فيها بعض الاحترام..الامتنان..الفخر..وأشياء أخرى....

"الدرس الأول فى التقارير - لو عايز تقارير بجد مش تقارير تضحك بيها على نفسك - إن اللى يجمعها يكونوا - بقدر الإمكان - أذكياء ومتعلمين..وسمعتهم طيبة..وإنهم -بقدر الإمكان برضوا - ميكونش ليهم مصلحة..إنت للأسف صعب تلاقى حد يقبل ينقل أخبار عن ناس ويكون فى نفس الوقت أعلى منهم فى الثقافة والفكر والأخلاق..فعلى الأقل ماتعتمدش على حد وضيع فى نقل أخبار عن ناس فى الأساس مش موضع اتهام..وإلا هتخلى شوية حثالة يلعبوا بيك ويكسبوا كثير من وراك".

"تمام يا ريس".

"فيه كام مجموعة معاك؟"

"أربعة يا ريس زى ما أمرت"

ابتسم (جمصان) أكثر..قال:

"الدرس الثانى..دايما خلى معاك أكثر من مجموعة تجمع معلومات..مهم يكونوا ميعرفوش بعض..تقاريرهم لازم تتقارن فى النهاية..التناقض معناه ببساطة..إما التلاعب أو عدم الدقة..فى الحالتين لازم توصل لكل مجموعة لوحدها إن المعلومات اللى جمعتها كذب..لازم تحطهم تحت ضغط الإتهام..لازم ناخد عليهم بنط..ويبتدوا يحسوا إن الحبل مش متسابلهم على الغارب".

كان (ضاحى) غارقا فيما يقوله (جمصان).....

"المهم..تقريرك يا (ضاحى)".

هكذا أفاق (ضاحى) لأصل الحوار..وقدم الأوراق ل(جمصان).....

"اللى فهمتوا يا ريس إن معظم الموجودين فى مناصب كبيرة فى الجامعة من رجالة الحكومة السابقة..ومعظمهم برضوه مش مشهود ليهم بأى حاجة..قليل منهم من أصحاب السمعة الطبية..كتير منهم رجالة مناصب وفلوس وده معروف عنهم".

"فى أسامى محترمة؟".

"كتير..بس فيهم ناس صغيرة فى السن وفيهم دكاترة على المعاش..معظم المناصب بتبقى لناس قريبة من سن المعاش..أقدمية يعنى".

"ده مش مهم..الأقدمية – يا (ضاحى) – نظام أتحط علشان يأكد عدم الثقة فى حيادية ونزاهة الاختيار ".

"تمام يا فندم".

"المهم....."

"قدام حضرتك أسامى كل الأساتذة أصحاب السمعة الطبية".

هكذا تناول (جمصان) الأوراق التى أمامه......

"أوامر سعادتك".

تكلم (جمصان) ومازالت عيناه تتشبثان بالكلمات:

"زى ما أنت..أصحاب المناصب القديمة هيفضلوا..ومش هيحسوا بحاجة..لحد ما أدرس الأسامى الجديدة".

ثم تذكر......

"أخبار حملة التلفزيون أيه؟"

"تمام يافندم..أكثر من برنامج وخبر عن العلاقات مع أوروبا وأمريكا".

"عظيم..خليها جاهزة لحد ما أقولك..كلم الدكتور (عبد المنعم)..عايزه فورا"

"د (عبد المنعم)؟"

رددها (ضاحى) بوجه لم يقدر على التحمد..كان من الواضح أنه لم يفهم..أو أنه لم يحب ما سمع....

فى النهاية هز رأسه كعادته وقال:

"أمرك يا ريس"....

***

المحافظة......

الحرم الجامعى.....

كان التجمع الغفير منطقيا أمام قاعة المؤتمرات..وحين وقفت سيارة (جمصان) المتواضعة أمام الساحة لم يبدو الأمن متشددا كالعادة..لم يكن الجو صانعا للرهبة لكن الرقاب كلها كانت متشوقة لهذا الغامض القادم......

وحين هبط من سيارته البسيطة كان — بهيئته — مثيرا للفضول..كان صلبا لكنه كان شديد البساطة......

ربما لم يقتنع الناس بدخوله كرئيس..لكنهم كانوا متشوقين لمعرفة هذا الرجل الغريب..أخرون أكثر حكمة كانوا يفكرون فى مصائرهم المرتبط بهذا الغريب..كان أكثرهم من الشباب.......

وحين دخل (جمصان) إلى القاعة تعمد أن يكون حازما فى دخوله وحركته..هكذا نهض الحشد الضخم من أصحاب الياقات وتعالى التصفيق البارد..هكذا أشار لهم (جمصان) بالتوقف بنظرة متواضعة لكنها واضحة.....

هكذا جلس فى منتصف المنصة وبجواره رجاله......

استجمع قوته بينما الأعداد تجلس..ثم تكلم..بهدوء ولكن بقوة..كانت الثقة قد صارت ملكه الآن....

بدأ صوته الرنان يدوى فى أركان القاعة..كان يقول:

"أولا..أشكر حضوركم المحترم..وإهتمامكم الواضح بتلبية دعوتى"

"الواقع إن ده أول مؤتمر شعبى أعمله منذ قيام الثورة..وإختيارى للمكان ده طبيعى ومنطقى..لأن المكان ده فيه أعلى قوتين محركين للحضارة..أساتذة الجامعة بعلمهم وثقافتهم والشباب اللى هو القوة والقدرة والمستقبل..الطاقة اللى ممكن تحول العلم والثقافة دى لإنجازات ملموسة لو تم استغلالها بالشكل المطلوب..مش بس علشان كده..وعلشان إحنا مدينين للقوتين دول بالإعتذار عن

السنين الطويلة اللى تم فيها تهميش دورهم..واللى أعتقد إننا دفعنا تمنها كدولة من حاضرنا ومستقبلنا".

"أنا شايف إن كل حاجة هتبتدى من هنا..عقولكم هتفكر..والشباب هينفذ..مفيش حاجة إسمها بطالة لأن مفيش إنجاز ملوش تمن..كل مجهود ليه ناس تقدره والطاقة البشرية هتفضل أكيد هى رقم واحد".

"أنا بأسعى دلوقت لتوفير مجلس إستشارى من رجال الجامعة الكبار..بعلمهم طبعا..من المعروف عنهم الخبرة والعلم والإقتدار..علشان يشارك فى إيجاد الحلول وإتخاذ القرارات..المجلس ده هيكون على إتصال تام بالشباب..ومدير لطاقته وواضع لإستراتيجيات تفعيل طاقته".

لم يكن هناك تصفيق..لكن (جمصان) لم يهتم..كان يعلم أن حجم تركيزهم قد تعدى مرحلة الوعى......

"كل ده تمهيدا لتفعيل دور الجامعة فى العمل السياسى..وبشكل مماثل أحب أنى أوضح إن طموحى فى إشراك الشباب فى العمل السياسى بلا حدود..الشباب مش بس طاقة ولكن صدق..ونفوس لم تتلوث بأطماع الحياة العملية..أنا ضد تحديد الشباب فى قالب واحد..اتحادات الطلبة وخلافه..ولكنى أسعى لعمل مجلس استشارى من طلبة الجامعة..بعضه بالإنتخاب وبعضه بالإختيار..الاختيار على أسس من الشفافية والوضوح..على أسس التفوق والسمعة الطيبة..أنا بوعدكم بعمل هذا المجلس من الشباب وإنى أدخله تدريجيا فى العمل السياسى..تدريجيا حتى يكون قادرا على المشاركة

والتغيير وعلى وعى تام بظروف وقضايا بلده..وذلك تمهيدا لقيام هذا المجلس بناء على أحزاب سياسية واجتماعية من أبناء الجامعة..وداخل الجامعة".

هز الناس رؤوسهم..بعضها رؤوس شابة اهتزت بالحماس وبعضها عاقلة تسخر من هذا الكلام ذى الصبغة الإعلامية.......

واصل الرجل:

"من الغباء أن يعتقد شخص أنه – وحيدا – يقدر على التغيير..ولا اثنين ولا أكثر..لأنهم فى النهاية لا يروا بغير عدد أعينهم..لكن التغيير يصنع عندما نترك أذننا تسمع كل الناس..هكذا نستطيع أن نرى بألف عين..من خلال عيونكم أقدر أعرف الأمور اللى بيتدور فى كل مكان ..من خلال عينى مش هقدر أشوف غير قدامى بس..أنا بوعدكم بتفعيل كلامى..وأحب إنى أسمع منكم"

نظرات شاردة......

"وده مش الهدف..دى خطوة لتغيير شكل الجامعة فى بلدنا الوليد..أنا عايز أصنع عقول وكوادر تقدر تستغل الصلاحيات والحريات المتوفرة ليها بدون غشم أو جهل..ده دور الجامعة اللى أنا محتاجه فى الفترة القادمة".

هكذا بدأ صوت الاصطدام الضعيف يتعالى ليرقى إلى مرتبة التصفيق..تصفيق بطئ لم يلبس أن تسارع ليغطى جنبات القاعة....

لم يبتسم (جمصان)..بذل مجهودا خارقا كى لا يفعل لكنه اكتفى بأن أخذ نفسا عميقا ثم قال:

"سيتم إبلاغ السادة المرشحين للمجلس فى خلال هذا الأسبوع..فى انتظار سماع أرائكم الكريمة".

***

القرية.....

دوار العمدة.....

الحاج (محمد) ينهى مكالمته مع (أبو هاشم) ثم يهز رأسه المتورم بالأفكار فى إنهاك..تقترب منه (هانة) متوجسة وقد أذهلها ما يفترشه أمامه من أوراق.....

كان منكبا لكنها قاطعته....

"جرى أيه يا حاج مش كفاية شغل؟"

أجفل الرجل من ثم رفع رأسه.....

"هانة؟..هانت يا حاجة..أنا لسه قافل مع (جمصان)..بصراحة أنا مبسوط جدا بإخلاصه وعايز أساعده نعمل حاجة للناس"

"بس الطلبات دى كثير قوى".

"أنا عرضتها على (جمصان)..ولقينا حلول لمعظمها..(جمصان) طلب منى أحاول أنفذ فى أسرع وقت..ده هيخلى الناس تثق فينا بصورة أكبر وأسرع ودى أكبر فايدة من اللى بنعمله ده".

"المهم يا حاج (محمد) الناس تحس باللى بتعمله علشانهم"

صمت الحاج (محمد) لحظة يفكر..ثم رفع رأسه ببطء وقال:

"المهم إنه يتعمل وخلاص".

ثم هز رأسه وقال فى حزم:

"والناس كمان عارفة يا (هانة)..مين فى البلد مش عارف؟"

نظرت إليه (هانة) بنظرة ظاهرة.....

"المهم يا (هانة)..فيه موضوع حريمى لستات البلد عايزينك تمشى فيه؟"

لم يعجبها انحرافه عن مجرى الحديث لكنه امتصت ذلك وقالت:

"خير يا حج"

ارتاح لانصياعها..هكذا راح يبحث فى عقله المكدود عن شئ يقوله لها....!!

***

-١٢-
الإعلام اليوم

جريدة الإجرام وهى جريدة حكومية:

"السيد الرئيس يقوم بجولة لزيارة عدد من الدول الأوربية فى إطار المباحثات حول تداعيات الأزمة الاقتصادية الأخيرة".

جريدة ضيق البلعوم وهى جريدة معارضة:

"حالة من القبول تسود الجماهير فى شولاط..وقناعة بأن الحكومة الحالية قد تستمر".

جريدة صوت شولاط وهى جريدة جديدة حلت محل الجريدة المحلية السابقة:

"صدى واسع لزيارة الرئيس الناجحة للجامعة..وقرارات سيادية فاصلة فى تاريخ البلاد الأيام القادمة".

***

قناة البحيرة:

يستدير المقدم بكرسيه اتجاه الشاشة الأولى ويقول:

"أستاذ وليد عمران الصحفى بجريدة الإجرام..ما تعليقك على أحداث شولاط الأخيرة والتى لا نرى أصداءه منذ زمن على صفحات الجريدة؟"

ثم يظهر الوجه الغاضب على الشاشة ويقول فى بطء:

"الحقيقة إن اعتمادنا وثقتنا العمياء فى الإعلام الأجنبى خلانا بنمشى ورا كلامهم كأنه مُنزل..يا جماعة كلنا عارفين الناس بره غرضهم أيه من ترديد الكلام ده وشعبنا الذكى الواعى فاهم الكلام ده كويس..الموضوع انتهى تماما لكن الإعلام الأجنبى بيحاول يخلق حالة من التوتر والبلبلة..فهمنى؟..أنا بقول..."

"حسنا..حسنا"

ثم يدور ويتحدث إلى الشاشة الثانية:

"أستاذ حسام..بصفة حضرتك من قادة حزب (بتوع الأتوبيس) المعارض..تعليقك على أحداث (شولأط)؟"

"هأقول أيه!!!!!"

"ده فشل كارثى وتعتيم غير منطقى على قضية بتمس الأمن القومى..مش قادر أفهم أحنا هنام لحد أمتى..الموضوع خطير..وواضح إن فيه أيدى خفية أجنبية بتدعم الموقف..أحنا الأخبار بتوصلنا إن الجماعة اللى فى شولاط بدأت تثبت أقدامها وبدأت أمورها تستقر..الأمر بقى أمر واقع..دى كارثة.. أين الشفافية..الشفااااااااافية؟"

"شكرا..شكرا أستاذ..(حسام)".

***

القرية......

مدد (بسطاوى) قدميه وهو يفترش الغطاء بجوار أرضه..وبجواره جلس (سعد) ومعه منديل الطعام اياه..قال (بسطاوى) وهو يمد يده بادئا التناول:

"شفت اللى حصل يا (سعد)"

"خير يا (بسطاوى)؟"

"حاجة عجيبة..أنا أمبارح لما لقيتهم فتحوا صناديق للى أسمها أيه الشكاوى دى قلت أجرب..بصراحة أنا كنت قلقان الأول وبعدين قلت زى ما ترسى..كتبت شكوى علشان الناس اللى بترمى الزبالة جنب البيت..مفيش يومين يا خويا ولقيت الحاج (محمد) باعت رجالته..ظبطوا الدنيا وعاملولى لوحة كبيرة علشان محدش يرمى زبالة..ده حتى أدولى نمرة تليفون كده علشان لو حصل الموضوع ده تانى"

"معقول؟".

"أنا لحد دلوقت مش مصدق"

"ما أنا قولتلك يا (بسطاوى)؟..الناس دى أحسن من العمدة بكثير!!"

"والله أنا مصدقك يا (سعد) بس الواحد مش عارف"

"مش عارف أيه بس؟..كل كل"

تنهد (بسطاوى) ثم مد يده أمامه ليتناول.....

***

مكتب رئيس الوزراء....

كان الرجل جالسا كالميت..وحين دخل عليه وزير الخارجية أيضا لم يحرك ساكنا....

"سعادة الباشا"

رفع الرجل رأسه فى بطء ثم أشار له كى يجلس دون أن يتكلم....

"مالك يا باشا؟..الموضوع أياه برضوه؟"

"هو فيه غيره؟..خلاص يا معالى الوزير..أنا مش عارف أتصرف بالذات بعد ما بانت نية الأمريكان..والريس هيتجنن..بيقولى أزاى الناس دى خططت ودبرت ونفذت وأحنا نايمين على ودنا".

"ده تخطيط من بره يا باشا"

"مش عذر..كان لازم نحس..كان لازم نشك..كان سهل مؤامرة زى دى تتمنع..لكن دلوقت صعب..خلاص يا معالى الوزير..الوزارة انتهت وأنا انتهيت"

"بس يا معالى الوزير الريس..."

قاطعه فى عصبية:

"مش هيحل المجلس دلوقت..أى حل للمجلس هيبقى تأكيد للأحداث..الريس منتظر الأمور تستقر الأول"

"طيب ما نحاول نستغل الفرصة ونحاول نسيطر على الموقف فى الفترة دى"

"صعب..أنا مش هأقدر أتحرك من ورا ظهر الريس"

"ما هى كده كده خربانة"

"حتى لو فرضت..هنعمل أيه؟"

"نحاول ناخد دعم الاتحاد الأوروبى..الاتحاد الأوروبى بيحاول دلوقت يكون ليه مواقف سياسية قوية ومستقلة..ممكن"

"المواقف شئ والتحرك السياسى شئ تانى"

"أحنا بنحرب..الاتحاد الأوروبى ليه مصالح فى المنطقة وأكيد السيطرة الأمريكية المطلقة ضد مصلحته"

"جميل..بس الاتحاد الأوروبى لسه موصلش لمرحلة..."

"مش هنخسر حاجة يا فندم"

"ممكن ناخد وعد ميتحققش"

"نجرب ونوزن الأمور"

تنهد رئيس الوزراء كمن يأخذ نفسا من تحت الماء..صمت و لم يعقب.....

كانت رأسه تنبض كالساعة..لم يكن قادرا حتى على تحويل أفكاره إلى كلمات....

لكنه نظر لوزيره وعاود التفكير......

***

مبنى المحافظة القديم........

تنهد (جمصان) مرهقا..كان واقفا بحلته الفاخرة أمام زجاج مكتبه وكان شاردا يراقب حركة الشارع..بينما كان (ضاحى) بجواره وكان منتشيا.......

"ولونى مش عارف دماغك فيها أيه..لكن بصراحة القاعدة بتاعت الجامعة دى عملت شغل جامد..وفيه صحافة وإعلام كثير غطى الخبر"

ابتسم (جمصان) ولم يعقب..صمت قليلا ثم سأله:

"أخبار رجالتك أيه؟"

"المجموعة اللى جوه الجامعة شغالة والتقارير بترف..والناس اللى فى البلد بدأت فعلا وعملت شغل حلو أوى".

استدار له جمصان وسأل:

"أزاى؟"

"التقارير بتقول إن الناس فى البلد كانت الأول مش مصدقة. أفتكرونا زى بتوع مجلس الشعب..بس الناس دلوقت بدأت تؤمن..موضوع التظلمات اللى أتعمل الأسبوع اللى فات عمل نتيجة والناس شايفة..كمان وعود المجلس كلها بتتحقق..الناس بتدعى للحاج (محمد) وليك صبح وليل".

"الحاج (محمد)؟"

صمت لحظة وشرد..ثم لم يلبث أن هز رأسه كمن يبحث عن مزيد من التركيز..ثم رفع كفه وقال:

"أبعت للحاج (محمد) قوله يستمر..ويكلم الوزرا يأكد عليهم أنهم يتابعوا الشغل بنفسهم..وإن الناس دايما تشوفهم فى كل مكان..قوله برضوا إن الناس تحب تشوف مش تسمع..يعنى لازم تتبنى حاجات وتتعمل قدامهم..حتى لو حاجات بسيطة..التلفزيون لازم يذيع كل شوية".

"أمرك يا فندم".

"الفاكس اللى وصل فين؟"

"موجود على المكتب".

"طيب دخلى الدكتور (عبد المنعم)".

"أمرك يا فندم".

هكذا انصرف (ضاحى) مغادرا الغرفة..خرج ثم ظهر من خلفه الدكتور (عبد المنعم)..لم يكن واثقا كالمرة السابقة لكنه كان هادئا على كل حال...

دلف إلى الغرفة ثم أغلق الباب خلفه..أشار له (جمصان) كى يجلس فجلس ثم ناوله ورقة من فوق مكتبه وقال:

"الفاكس ده وصلنى النهاردة..أيه رأيك؟"

تناوله الدكتور (عبد المنعم)..ألقى نظرة سريعة ثم ابتسم وقال:

"رأى كدكتور أو كمواطن أو...."

"رأيك كمستشار؟"

هز الرجل وكتم ما يستطيع من رد الفعل..

"يا سيادة الريس هكلمك بصراحة..عقلك وإخلاصك اللى كان واضح فى اجتماع الجامعة يخلينى أنصحك بإخلاص مماثل..الإتجاه الإعلامى بيشعر إنك قريب من أمريكا..إيران بتعرض هنا إنها تكون أول دولة تعترف بوجودك فى مقابل تفعيل علاقات سياسية وإقتصادية قوية معاها..ده عرض كويس..بس فى الميزان هيخسرك كثير..لأن أمريكا وإيران ميتحطوش فى كفة واحدة..ومحدش هيقبل إنك تلعب على الاثنين..لو هتختار طبيعى تختار أمريكا..لكن أمريكا مش مضمونة..النهاردة مصلحتها معاك بكره هتبقى عليك..كمان أمريكا مش هتسمح إنك تكون الأقوى فى المنطقة..مش هتسلحك ومش هتنعشك إقتصاديا إلا لحد معين مش أكثر..إيران ممكن تساعدك فى ده.بس ساعتها هتخسر الدعم السياسى الأمريكى وبعض المساعدات المادية..الخلاصة إنك لازم تختار بين الدعم السياسى وسقف الطموح المشروط وبين دعم اقتصادى أقل ودعم عسكرى غير مشروط..أنا لو مكانك أمشى ورا أمريكا..لأنى محتاجها..دى مش مرحلة إيران..على الأقل دلوقت..أنت حاليا فى مرحلة أمريكا..بكرة ممكن تكون مرحلة إيران..علشان كده ردك على إيران لازم ميكونش سريع ويكون مش واضح..علق الأمور..من ناحية علشان متخسرهمش ومن ناحية لأن الكلام ده كله بيوصل لجهات إتخاذ القرار فى أمريكا..ده هيخلى أمريكا تعرف إن ليك زباين وتكون أسخى فى التعامل معاك"

"بصراحة يا ريس العرض ده زيه زى حاجات كثير جت فى صلحك".

ابتسم (جمصان) ثم هز رأس قائلا:

"نصيحة مخلصة..أنا واثق من كده".

"يعني أستأذن يا ريس؟"

"تقدر تستأذن يا دكتور (عبد المنعم)..على لقاء بعد أسبوع مع تعيين المجلس الاستشارى"

"ليه..هو أنا فى المجلس؟"

"أنت بتسأل؟"

قالها ثم ابتسم وأشار له أن ينصرف....

***

القرية.....

دوار العمدة....

الحاج (محمد) جالسا على قمة مائدته..بجواره (أبو هاشم) وعلى مسافة كان (أبو الليل) و (عمرو) و (الغريب)..تكلم الحاج محمد قائلا:

"الريس (جمصان) مبسوط على الأخر..وصله إن الناس بدأت تنبسط وتثق فينا..بس التعليمات الجديدة إن الناس لازم تشوف عمار..تحس إنها فى بلد كبير..الناس لازم تشوف التغيير مش تسمعه".

قال (عمرو) بحدة:

"وفينه الريس (جمصان)؟..بيعمل ايه ده كله؟..مش ناوى يرجع"

"الراجل بيعمل شغل مهم فى المحافظة..وبيظبط الدنيا علشان الأمور تستقر..أدينا هو داخلين على أسبوعين..حد عرف يعملنا حاجة".

"أيوه بس احنا فين من اللى هو بيعمله ده؟"

"كل واحد بيشتغل فى جهة..والريس (جمصان) عارف كويس هو بيعمل أيه"

يتكلم (أبو هاشم) مرهقا ويقول:

"يا أخونا خلينا فى اللى أحنا فيه"

"أنا بقول كده برضوه"

ثم أستدار الحاج (محمد) إلى الجمع..قال:

"باقى أيام على المؤتمر الشعبى التانى..فى الفترة دى عايزين نفعل الوعود أكثر..أنا بنفسى هأقوم بتسليم عقود الأراضى على الناس ابتداء من بكرة..هيكون فيه اتفاق بالتراضى بين ملاك الأرض على الأصناف اللى هيزرعوها علشان عملية الإنتاج تمشى فى الصالح..أنا كلمت الريس وكان متحمس جدا..وقال كمان أنه هيبعتلنا من عنده أساتذة كبار فى الجامعة فى مجال الزراعة علشان تشرف على المحاصيل بنفسها".

تكلم (أبو هاشم):

"بالنسبة لى أنا هأمر على المستشفيات والوحدات الصحية لظبط المخالفات وتحديد المتوفر وغير المتوفر..عايز أتأكد إن الدكتور موجود ٢٤ ساعة..وإن المريض مش هيغلب..كمان لازم نصنف

المستشفيات والوحدات اللى عندنا لأماكن كويسة وأماكن أقل وأقل..ده هيساعدنانعرف كل عيان المفروض ياخد علاجه فين ومن مين حسب حالته مش حسب وقت ومزاج الدكتور..ده هيسهل مبدأ الثواب والعقاب..مفيش مريض هيتمشور تانى بسبب وبدون سبب".

"تعليمات الريس (جمصان) إن الزيارات المفاجئة دى كلها تتصور وتتزاع..ده بيريح الناس ويزود الثقة".

"مفهوم..مفهوم".

قال (عمرو):

"أنا برضوا ماشى فى قصة الصناعة دى ومش بأهمد..الشباب مستحيب والإستمارات اتملت وبكرة الصبح هعمل معاهم قاعدة طويلة علشان افتح دماغهم وأشوف فيها أيه..وأزاى ممكن ننفذ".

"أهم حاجة يا رجالة إن الناس تشوفكم..وتحس بوجودكم".

الغريب صامتا...

قال الحاج (محمد):

"جهزوا لقاعدة الأسبوع الجاى يا رجالة..الأمور ماشية تمام..مش عايزين نخستع!".

"تمام يا حاج (محمد)".

والغريب مازال صامتا....

***

المدينة....

الحرم الجامعى....

وحين بدأ اليوم الدراسى مع دقات الثامنة بدا لطلبة الجامعة بأنه ثمة أمر ما سيحدث هذا النهار.....

فى البداية تحرك طالب..اثنان ثم ازداد الجمع..تراكموا فى الطريق..وبدأت اللافتات فى الظهور....

بعض الطلبة الواقفين كانوا أذكياء بما يكفى كى يتراجعوا حين رأوا طبيعة الطلبة المجتمعين ومظهرهم..البعض كان أقل ذكاء و لم يتراجع إلا حين برزت اللافتات وعرفوا ما تحتويه.....

"ربنا يستر".

ثم — فى عجلة – صعد الناس على الأعناق وأنطلق الجمع فى تظاهر عنيف..ارتفعت اللافتات لأعلى ثم انطلق الصياح..كانوا طلبة الاتجاهات الدينية وقد وجدوا فيما تعانيه البلد من اضطرابات وفى مؤتمر (جمصان) فرصة لإعلان الوجود وتأكيده..هكذا استشرى الجمع فى كل مكان يهتف بالدين..وببلد الدين وسياسته..هتاف رج الجامعة..ثم بنظام مدروس بدأ العدد فى الزيادة..هكذا صارت الأيدى على القلوب وقد أدركوا أن المواجهة الأمنية قادمة لا محالة..هذه ليست من المظاهرات إياه التى يحمل أصحابها تصريح الأمن مسبقا..هذه مظاهرة حقيقية عنيفة تهدف إلى المواجهة....

لكن الأمن لم يظهر مطلقا هذه المرة.. لم يفهم أحد من الطلبة ولا حتى من المتظاهرين أنفسهم لكن المظاهرة استمرت على أى حال واستمر العدد الثائر فى الزيادة..كثيرون ظنوا أنها إجراءات (جمصان) فى إخلاء الجامعة من أمنها..الواقع أن أمن الجامعة لم يكن قد رحل بعد لكنهم لم يكونوا على دراية بكيفية التصرف..حالة من توتر وهو لا يدركون هل سيستمر حكم (جمصان) فهم تابعون له..أم أنها زوبعة فنجان وسوف تعود الأمور لنصابها...

استشاروا قيادتهم التى كانت على نفس درجة الحيرة..لكنهم لم يكونوا متحمسين للتحرك..كان هذا التحرك أشبه بحماية لنظام (جمصان) وهو ما قد يدينهم فيما بعد..هكذا استمرت المظاهرة لأربعة ساعات كاملة دون أن يظهر جندى أمن واحد.....

هكذا بدأت الناس تتابع من جديد وسط النظرات الذاهلة.....

***

مبنى المحافظة....

ظهر نفس اليوم.....

"يعنى الأمن معملش حاجة؟"

هكذا تكلم (جمصان) وهو يعود بظهر مقعده عاقدا ساعديه أمام صدره..كان (ضاحى) واقفا أمامه وكان يتحدث فى حماس....

"يا ريس لو تأمر بس أنا ممكن أجيبلك الجماعة اللى عمل المظاهرات دول من ...."

أشار له (جمصان) بكفه أن توقف وقاطعه قائلا:

"بالعكس..سيب الناس تحس بالفرق..بس أنا اللى يهمنى فى الموضوع ده نقطتين..أولا إن الناس دى لازم تكون تحت عنينا..طبعا من غير إستفزاز..شعبيتهم مش قليلة..علشان كده نمسك العصايا من النص..نديهم اللى يطمعهم..اللى مكنوش بيخدوه قبل كده بما فيه الحرية الكاملة فى التظاهر بس فى نفس الوقت ميخدوش كل حاجة..مش لازم يطمعوا.وكلوا تحت عنينا..عايزين نكسبهم فى صفنا ونحسسهم إن عدونا واحد وإن فرصتهم معانا".

صمت (ضاحى) و لم يرد....

"النقطة الثانية.."

ثم نهض (جمصان) وقد اكتسى صوته فجأة بالصرامة......

"إن جهاز الشرطة مش بيدافع عن النظام الجديد..المشكلة إن الجهاز الموجود جهاز مدرب وخبير..صعب جدا إنى أقدر أخلق جهاز بديل بينتمى ليا فى ظرف أيام..علشان كده لازم جهاز الشرطة الحالى يعرف إننا أحنا حكام البلد دى..عناصرنا لازم تدخل تدريجيا جوا جهاز الشرطة..تتعلم وتتدرب لحد ما تبقى قادرة إنها تشيل المسئولية وفى نفس الوقت هتكون عيون لينا وسط الجهاز الحالى..أنا عايز شباب بلدنا اللى كان هيموت علشان يخش كلية الشرطة..اعمل إعلان بده..إحنا معندناش كلية شرطة وهو ده البديل..التدريب العملى..كده هنعمل جهاز ينتمى لينا بصدق ويمتاز بالكفاءة فى يوم من الأيام وفى نفس الوقت هنحقق للناس حاجة تفرحهم".

ثم سار نحو (ضاحى) وهو يفكر بينما الأخير صامت كالحائط....

"عايز اجتماع مع قادة جهاز الشرطة..عايزهم يتعملوا أحسن معاملة..عايز حركة ترقيات وحوافز وأجازات..بس التهديد هيبقى واضح..الشارع مصير الخاين والمقصر".

"والله يا فندم أنا رجالتى جاهزة و...."

"مش دلوقت يا (ضاحى)..أفهم".

هنا تعالى صوت السماعة الداخلية...

"سيادة الريس..د (عبد المنعم) على التليفون".

"د (عبد المنعم)؟".

ثم استدار إلى مكتبه وضغط الزر ليسمح بالكلام...

"خلينى أكلمه".

ثم تناول هاتف مكتبه بينما راح ضاحى يمصمص شفتيه فى عدم رضا....

"آلو..أيوه يا دكتور (عبد المنعم)"

ثم...

"تلفزيون؟..تلفزيون أيه؟"

"طيب أنا هشوف بنفسى..شكرا لإتصالك"

قالها ثم أغلق الهاتف فى جفاء....

"خير يا فندم؟"

نظر إليه جمصان شاردا وقد بدت عليه علامات الإستياء.....

"(ضاحى)..الحاج (محمد) أو حد من البلد كلمك أو حاول يكلمنى النهاردة؟"

"محصلش يا ريس".

قالها (ضاحى) متوجسا....

"أمال مين وافق على حملة الإعلانات دى؟"

قالها بصوت خفيض وهو يتناول جهاز التحكم ليدير جهاز التلفاز.....

هنا استدار (ضاحى) يشاهد غير فاهم......

***

البرينجى......!!!

مشهد لفتاة صغيرة بزى ريفى وهى حزينة..تقول لأخيها الكبير باكية:

"يا حواس..جيه معاد التار..وشكلنا حدام الكفر بجا مش حد إكديه..الناس بتحول علينا مش عارفين ناخد بالتار".

"والحال يا ناعسة".

تفكر ناعسة..ثم فجأة تقول بحماس...

"عليك وعلى أسلحة البرينجى".

يختفى المشهد ثم يظهر مشهد واسع للقرية.......

مجموعة من الرجال فى زى قروى..يضحك أحدهم ويقول:

"مرة سنة ومحدش من ولاد البهايدة عرف ياخد إبتارهم".

"ولو عمرهم هيعرفوا".

ثم يضحكون فى تناغم حتى يستلقون جميعا على الأقفية..فجأة يظهر طفل من بعيد يصرخ وطرف الجلباب فى فمه:

"يا عم (جعران)..يا عم (جعران)".

"فيه أيه يا واد مالك مسروع ليه؟؟".

يقول الولد وهو يأخد أنفاسه بصعوبة:

"اولاد البهايدة جايين على أهنيه".

"وأنت خايف منهم عاد ولا ايه؟".

"المشكلة مش فى أكديه..المشكلة أنهم جايين ومعاهم....

أسلحة البرينجى".

"أسلحة البرينجى".

يقولها الرجل مذعورا ثم يصيح:

"ألحجوا يا رجال..الواد ابن البهايدة جاى ومعاه بندجية البرينجى".

"بندجية البرينجى..!!!".

يقولها الناس مذعورين ثم يهربون فى كل صوب..ويظهر حواس فى الأفق حاملا البندقية..ثم يبدأ فى إطلاق النار..يضيف المخرج مشهد من فيلم الهلفوت لتوفير النفقات......

فى نهاية الإعلان يظهر حواس ظافرا وبجواره ناعسة....

"مع أسلحة البرينجى..محدش يجدر يعلم عليك".

***

وقف (جمصان) ذاهلا ربما لأول مرة منذ سنوات..شرد كالأبله فى حين هز (ضاحى) رأسه باستمتاع...

"هى كل الفقرة الإعلانية كانت كده".

قالها ثم انفجر على غير عادته........

"كلملى الحاج (محمد) على التليفون حالا..مين قال الكلام ده يتذاع؟"

أخرج (ضاحى) هاتفه غير فاهم.....

"ابن أبو الليل أتجنن خلاص".

***

مكتب رئيس مجلس الوزراء......

يتقدم وزير الخارجية من خلال الباب فيستقبله رئيس الوزراء فى لهفة..كانت عيناه تشعان بعجزه عن الانتظار......

"اتفضل يا سيادة الوزير".

هكذا صافحه الوزير وأسرع بالجلوس وهو يفتح سترة حلته....

"خير يا فندم".

"خير..أنا كلمت سيادة الرئيس وهو بيكلفك بزيارة مكوكية لأوروبا تحت مسمى بحث الأوضاع الاقتصادية وسبل تدعيم الاقتصاد القومي..هتقوم في الزيارة دي بمحاولة حشد الدعم لموقفنا ضد الإرهابين بشولاط..في نفس الوقت هنحاول نسرب معلومات استخبارتية للعالم الغربي بإن إرهابين شولاط ليهم علاقة بالقاعدة".

مط الوزير شفتيه في رضا..من ثم قال:

"النهاردة هيحصل يا فندم..وهتسمع أخبار كويسة".

"أنا قمت باتصالاتي للتمهيد لزيارتك..بالتوفيق سيادة الوزير".

هكذا نهض الوزير يغلق سترته وعاد يصافح الوزير....

"هكون على اتصال بحضرتك يا فندم".

ثم استدار..ثوان ثم صوت الباب.....

أنفاسه المتوترة و.....

"ربنا يستر"

***

مبنى المحافظة.....

كانت المرة الأولى التي يرى فيها الدكتور (عبد المنعم) (جمصان) على هذا القدر من الانفعال..كان قد وافاه إلى مكتبه حين شاهده يتحدث غاضبا في الهاتف..لم يكن يعرف كنه المتحدث لكنه حين سمع اسم الحاج (محمد) خمن أنه رئيس الوزراء المزعوم......

"يا حاج (محمد) الاعلانات دى سفه وقلة قيمة..ونوع المنتج نفسه حتى لو هيجيب فلوس مش هيخدم قضيتنا..لو سمحت يا حاج (محمد) الحاجات دى ترجعولى فيها متعملوش حاجة من دماغكم".

استمع قليلا ثم قال:

"ماشى يا حاج محمد..سلام دلوقت".

قالها ثم أغلق الهاتف والضيق يشع من وجهه........

"الحاج محمد رئيس الوزرا؟".

تنهد جمصان وقال:

"شخص محترم..مخلص وطيب..بس...."

قالها ثم صمت.....

"الغريب إنى – أسمحلى- عمرى ما حسيت إن ليك وزا غير فى الموقف ده..طول الوقت حاسس إنك لوحدك..يمكن لأن الوزا كلهم بعيد عن المحافظة هنا فمحدش حاسس بوجودهم".

"أنت شايف ده كويس ولا وحش؟"

قالها فى صرامة فأجاب دكتور (عبدالمنعم) بحذر:

"حسب وجهة نظرك فى ده".

صمت جمصان وشرد لحظة..بدا وكأنه لا يريد أن يجيب لكنه فى النهاية قال:

"فى الأول كان تخطيطى إن أتواجد هنا لوحدى فترة علشان الأمور تستقر وبعدها أرجع..وفضلت أسيبهم يديروا البلد هناك تحت إشرافى فى الفترة دى..بعدها لقيت إن موضوع نقل العاصمة ده فكرة مش عملية..كل حاجة موجودة هنا..والفكر كمان هنا..دى حقيقة مقدرش أقف قصدها..الجامعة هنا..العلم هنا..الأمن هنا..وضع مركزى أتفرض من سنين ومحتاج أكتر من سنين علشان يتصلح..ممكن إكراما لبلدى إن أحاول أعوضها سنين الجهل والإهمال وأحاول أخليها تتشاف..ممكن حتى تبقى العاصمة التانية".

"ومفكرتش إن مجلس وزاءك لازم يكون معاك".

"صعب إن الناس فى بلدنا تقبل ده..الأهم إنهم بيخدموا أهدافى فى البلد أكتر وأنا محتاج وجودهم هناك".

"أسمحلى..هى بلدكم دى كام واحد بالمقارنة بهنا علشان تعمل حسابهم كده؟"

"مش هأقولك إنها بس مسألة انتماء..لكن هأقولك إن الناس اللى فى القرى دى هى اللى لو بتحبك ممكن فعلا تحميك بحياتها..أكتر من أى عدد من الناس فى المدن مهما كانوا راضين عنك".

هز دكتور (عبد المنعم) رأسه فى عدم اقتناع....

"طيب . أنت هتحكم فعليا لوحدك؟"

"الدكتاتور كائن غبى..اللى تشوفه عينى وعينك أكيد أفضل من اللى هشوفوا لوحدى حتى لو كنت أحسن واحد بيشوف..الكلام ده قلته أكثر من مرة".

ثم تنهد وقد أنهكه ما قال.....

"عارف يا دكتور..مشكلة أى ثورة أو انقلاب فى العالم إن اللى بيقوموا بيه رجال حرب..عمرك سمعت عن ثورة قام بيها مفكرين أو علماء..وطبعا محدش هيقوم بثورة علشان يرفع فساد وبعدها يتراجع ويسيب الحكم لغيره عن رضا..مهما كان غيره يستحق..محدش هيقوم بثورة وبعدها يقعد فى البيت وهو مرتاح الضمير إنه أدى واجبه وفتح الطريق للأشخاص المناسبة إنها تاخد الفرصة..اللى بيقوم بالثورة منتظر ياخد نصيبه على قد المخاطرة والتضحيات اللى دفع تمنها..متقدرش تقول للقاعدة دى لأ..حتى لو كانت إدارة الثورة حاجة وإدارة البلد حاجة تانية خالص..غير كده أى ثورة محتاجة للقوة علشان تحميها..أى ثورة فى الدنيا بتقوم على ده".

ثم واصل:

"علشان كده الأمن والسياسة أخوات..الأمن ورجالته ممكن تلاقيهم فى أى منصب..فى حالتنا دى رجالتى لازم يمسكوا كل المناصب العليا .. ده حقهم التاريخى..القاعدة بتقول صانع النظام هو أكثر من يخاف على النظام..أى حد من بره ممكن يكون معاك أوضدك وممكن يبيعك فى أى لحظة..غير إنهم دلوقت لا يمكن يقبلوا بأقل من ده..هل هأجى أنا بعد السنين دى وأكثر القاعدة".

ابتسم دكتور (عبد المنعم) و لم يرد....

"يا ريت".

قالها (جمصان) ثم استلقى على كرسيه و لم يعقب...

***

أحد منازل المحافظة.............

نفث اللواء (حافظ) دخان سيجارته فى توتر..كانت الساعة السابعة صباحا وكان وجهه يفضح ما به من أرق..كان صامتا وبجواره زميله الذى لم يكن بأقل منه فيما يعانى...

قال له العميد (زكى):

"يعنى هو اللى عايز يجتمع بينا؟".

"مش بالظبط..هو الظاهر كده بس الحقيقة إنى أنا وبعض ظباط الجيش اللى وصلنالوا رغبتنا بالاجتماع بيه"

"طب ليه؟"

هز اللواء (حافظ) رأسه فى عصبية وقال:

"ليه ايه؟..الانقلاب فات عليه أكثر من شهر..عجبك أوى الحراسة اللى على بيتك وبيتى..أحنا أتعزلنا من مناصبنا وهما اللى سيطروا على الجيش..بعد العمر ده كله يتعمل معانا كده..دا أنا بنام وقوم بحلم باللحظة اللى هيعدمونا فيها ولا يرمونا فى المعتقل..فلوسنا اتصادرت..هنعيش أزاى؟؟؟".

"يا فندم بس دى...."

قاطعه غاضبا:

"أوعى تقولى خيانة..مهما كان كلنا من وطن واحد..الشرعية والسلطة دول كلام نسبى بيتغير بين يوم وليلة..بلدنا ياما قام فيها ثورات..كان ممكن تسميها خيانة فى يومها..لكن النهاردة هى ثورة..فهمني؟..بدل نفس الدم يبقى كل الاحتمالات موجودة".

لم يبد العميد مقتنعا لكنه قال بصوت مبحوح:

"طيب سيبك من الخيانة..مش الرهان على الناس دى خطر".

"خطر..طبعا خطر..لكن هى دى المعطيات اللى فى أيدى..أفتح التلفزيون بتعهم هتلاقى الكلام واضح..برقيات وتصريحات كلها بتقول إن أمريكا فى ضهرهم..القيادة محولتش تتصل بينا غير مرة واحدة بعد الانقلاب بيومين..جالى مندوب متخفى وقالى إن وزير الدفاع بيطمنكوا وعايزكوا على أهبة الاستعداد وإنه حابب يعرف شويه معلومات عن المنقلبين..وعدته بجمع أكبر قدر من المعلومات..بعدها المندوب اختفى وماظهرش تانى..حاولت اتصل بيه من ساعتها لكنه بقى بح..فص ملح وداب".

"أول مرة أسمع من حضرتك الكلام ده".

تنهد اللواء وقال:

"علشان السرية يا سيدى..كنت فاكر الموضوع جد..دلوقت خلاص..يا (زكى) اللى زينا بيعيش العمر يتمرمط علشان لما يوصل للسن ده يلاقى الاحترام والتقدير..مش اللى أنا فيه ده".

"بس يا فندم".

"الاجتماع معاه الساعة عشرة..شوفه عمل ايه مع الشرطة وبعدها فكر كويس..شوف الترقيات والاجازات والحوافز وأنت تعرف إنه اشترى دماغهم ..فكر كويس".

ثم نفث الدخان كالأمواج......

وترك قلبه يدق كفهد يعدو فى العراء.....

***

-١٣-
الإعلام اليوم

جريدة الإجرام (جريدة حكومية):

"وزير الخارجية فى جولة مكوكية لتدعيم العلاقات مع دول الاتحاد الأوروبى..وفد رفيع المستوى يصاحب سيادته فى رحلته التى تستغرق أسبوعا لعدد من الدول الأوروبية".

جريدة ضيق البلعوم وهى جريدة معارضة:

"حالة من الذعر تنتاب المواطنين فى العاصمة بعد انفصال شؤلاط والدعم الأمريكى لقادة الانقلاب..المواطن البسيط يتسأل عن مستقبل التدخلات الأمريكية فى النظام القومى..وعلى من يكون الدور فى خطة أمريكا للهيمنة والسيطرة"

"استياء عام من العجز الأمنى عن محاولة تحرير شؤلاط".

جريدة صوت شؤلاط وهى جريدة جديدة حلت محل الجريدة المحلية السابقة:

"فى تصريحات هامة للرئيس جمصان: أمريكا دولة صديقة والعلاقات معها علاقات متميزة..لكنها لا تؤثر على توجهاتنا واستراتيجيتنا تجاه الوطن والمنطقة".

***

قناة البحيرة:

يستدير المقدم بكرسيه اتجاه الشاشة الأولى ويقول:

"أستاذ (جاد)..بصفتك من أهم رجال المال والسياسة..نحب أن نسمع وجهة نظرك حيال ما يدور فى شؤلاط..وحالة الذعر التى انتابت المواطنين من جراء نجاح حالة التمرد وما يعكسه هذا على الأمن القومى"

ثم يظهر وجه منتش على الشاشة..يبتسم فى ثقة ويقول:

"لا تعليق..أحنا اتعودنا على تضخيم الأمور فى بلادنا من ساعة ما ظهرت بعض الفضائيات اللى عايزة تاكل عيش..أنا بأكد من خلال مصدر مسئول مش هينفع أقول اسمه إن أحداث شؤلاط دى كانت مجرد تار بين عائلتين حاولت بعض العناصر الإرهابية إنها تستخدمه للقيام بعملية لإغتيال بعض العناصر الأمنية و....."

"حسنا..حسنا"

ثم يدور ويتحدث إلى الشاشة الثانية:

"أستاذ (سليمان)..حضرتك عضو ناشط بمؤسسة (الحرية..الحرية..بلدى أهيا..والله أهيا) المستقلة..أيه رأى حضرتك فى مخاوف رجل الشارع العادى من أحداث شؤلاط؟"

تكلم الصوت من الشاشة الثانية وكان غاضبا:

"رأى إن الناس مبقتش حاسة بالأمان..بالثقة فى حكومتها..الناس حاسة إن أمريكا على الأبواب..الناس عايزة تعرف الحقيقة..الحقيقة..ولا شئ غير الحقيقة".

ثم سكت فجأة..هكذا اعتدل المقدم وقال:

"أستاذ سليمان..هل يوجد لديك تعليق إضافى؟"

"الحقيقة يا فندم..أهم حاجة توضيح الحقيقة!"

"شكرا جدا أستاذ سليمان"

***

القرية مرة أخرى......

مسح (بسطاوى) عرق جبينه وهو يهبط بقفزة واحدة من فوق الجرار..فى انتظاره (سعد) وكان باش الوجه:

"مبروك عليك يا (بسطاوى) الجرار..دى حاجة زى اللوز"

"والله يا (سعد) الحاج (محمد) عمل معانا أحلى شغل..احنا أتفقنا مع الحكومة وكل واحد معاه ورق رسمى بحدود أرضه واللى هيزرعه فيها علشان منقفلش على بعض..وممكن فى أخر الموسم نبيع للحكومة أو للناس احنا حريين".

"يا (بسطاوى)..دول بيقولوا فيه أساتذة كبار هيمروا على الأراضى علشان يشرفوا بنفسهم على الانتاج والجودة".

"ده بدل برنامج هز الأرض؟"

"حاجة زى كده".

"كلام جميل والله..العلم نور برضوه"

"مش قلتلك أنا متفائل..شوف منظر الشوارع النضيفة المتسفلتة وأنت تعرف الناس دى بتعمل ايه..الحاجة بتتعمل فى يوم مش فى سنة".

تنهد (بسطاوى) وقال:

"والله أنا لسه خايف"

"خايف؟"

همس (بسطاوى) وقال:

"أصل الكلام ده مش بعادة..مش بعادة يا (سعد) يا أخويا".

***

منزل رئيس مجلس الوزراء....

الساعة الثانية صباحا....

يقفز رئيس الوزراء منتفضا من فراشه..ينظر فيرى هاتفه الجوال يهتز كالحية.....

"سيادة الوزير؟"

"وصلت بالسلامة..عال عال..عايز معاليك تبلغنى بالأخبار دقيقة بالدقيقة"

"لا ميهمكش حتى لو خمسة الفجر..المهم طمنى..الاستقبال عامل ازاى؟"

"تمام تمام..يا رب تكمل على خير".

"مع ألف سلامة..مع السلامة"

ثم أغلق هاتفه وألتقط نفسا عميقا.....

ثم رفع رأسه للسماء وقال فى خشوع:

"يا رب".

***

قاعة المؤتمرات....

مبنى المحافظة القديمة.....

غادر (جمصان) قاعة الاجتماعات مسرعا وبجواره الدكتور (عبد المنعم)..كانا يتجهان نحو مكتب الأول بينما تسربت جماعة من رجال الجيش فى ثياب عسكرية مغادرة القاعة من خلفه وعلى وجوههم الصارمة تعابير التجهم.....

كان الدكتور (عبد المنعم) البادئ بالحديث وقال هامسا:

"يا ريس لازم تكون حذر..الناس دى وقت ما حد هيهجمك هيكونوا معاه..حتى لو عاشوا معاك فى ظروف أحسن لأنهم حاسين إن ده انقلاب هزيل ومسيروه هيفشل..وساعتها هيخافوا من تهمة الخيانة..يعنى طول ما أنت قوى هيكونوا معاك لكن لو فى يوم وقعت هيحولوا يثبتوا إخلاصهم على حسابك".

قال (جمصان) فى حزم:

"للأسف أنا محتجهم".

"مخاطرة".

"أنا بأوزن الأمور يا (عبد المنعم)..أنا مش خايف من النهاردة..النهاردة فى حد بيحمينى..على الأقل الناس متصورة كده..بكرة اللى بيحميك ممكن يلاقى مصلحته مع غيرك..ممكن تلاقى نفسك مضطر تدخل فى سباق تنازلات مع غيرك وأمريكا هى اللى كسبانة..أنا مش عايز اللحظة دى".

"بس هتبقى كارثة إنك تلاقى جيشك بينقلب ضدك..صعب دولة متديش لجيشها الأمان".

"خوفى مش من العسكرى"..

أجاب (جمصان) وهو يفتح باب مكتبه:

"العسكرى بيطيع الأمر وميتفعش تتهمه بالخيانة لأنه تحت طوع القائد..العسكرى ده كمان أنا أعرف أكسبه كويس..الخوف الحقيقى من القادة اللى بيفكروا وبيعملوا لأفعالهم ألف حساب".

"مختلفناش".

"بس أنا محتجلهم..محتاج خبرتهم..أنا عندى فى البلد كوادر كتير..متعلمين ومنهم خريجى كليات عسكرية..بس أنا مقدرش أعتمد عليهم دلوقت..ده أمن بلد مهددة فى أى لحظة..المطلوب دلوقت إنى أسيبلهم الأمور فى فترة الأمان..رجالتنا هيكون وسطيهم..بيتعلموا منهم وكمان بيكونوا عيون عليهم..زى ماعملنا مع الشرطة بالظبط..بالتدريج هبتدى أتخلص من الكوادر القديمة وأزرع الكفاءات من رجالتنا فى مناصب القيادة لحد ما أضمن الولاء التام..ساعتها يمكن تكون نهاية الناس دى فى المعتقل..محدش عارف".

حدق فيه د (عبد المنعم) فابتسم (جمصان) ابتسامة قاسية وقال:

"متخفش يا د (عبد المنعم)..الكلام ده على الجيش بس".

قالها فى نفس اللحظة التى اندفع فيها (ضاحى) بجسده الضخم إلى داخل المكتب..وكان متحمسا....

"تمام يا ريس..(الغريب) بيقول لسعادتك إن كل شباب البلد اللى عايزين يخدموا فى الجيش هيكونوا عندك بكرة الصبح".

"على خيرة الله".

ثم استدرك:

"دخلى الاثنين اللى بره دول حالا".

"أمرك".

رفع د (عبد المنعم) رأسه متسائلا لكن (جمصان) لم يعطه الفرصة ليسأل....

"دول رئيس التلفزيون ورئيس تحرير جريدة صوت شؤلاط".

قالها والجسدان المرتجفان يندفعان إلى داخل المكتب.......

"أهلا بحضرتك يا ريس..أحنا مش عارفين...."

"بس بس بس..هدوا نفسكم شوية".

قالها باسما...

"أنتوا فاكرين ايه..سفاح؟..ملكم مفزوعين كده"

"العفو يا فندم".

أشار لهما بالجلوس ثم أشار بيده علامة الكوب ل(ضاحى) الذى أغلق الباب خلفه.....

كانا مازالا يرتجفان........

"بصوا يا رجالة"..

يقول (جمصان)....

"أنا شاكر جدا للمجهود المخلص والواضح اللى ظهر فى الفترة اللى جاية وأوعدكم بدعمه ماديا فى القريب العاجل".

"بس أنا حابب أشوف من حضرتكم الفترة الجاية طفرة إعلامية..عايزكوا تجذبوا المشاهد العادى بأكبر قدر من المتعة..عايزوا يحب يشوفكوا ويسمعكوا..الأهم إنى عايز الإعلام الإخبارى يكون متوازن..عايز اللى بيتقال فى الشارع هو اللى يظهر على الشاشة وفى الجرنال مهما كان ضدنا..إنقلوا الأحداث وبس..الناس هتعرف الحقيقة بأى شكل فأحب أنها تؤمن إننا أحنا اللى هنقولها الحقيقة..عايز الناس تثق فيكوا وفينا علشان يوم ما نتكلم وغيرنا يتكلم الناس تصدقنا أحنا..مش عايزين نوصل الناس إنها تعرف الحقيقة من غيرنا مهما كان وتتصور إن اللى بنقوله كله كدب وتلفيق"

ثم استدار إلى د (عبد المنعم).....

"د (عبد المنعم)..يا ريت تجتمع بيهم علشان توصلهم إللى أنا أقصده بصورة مفصلة".

"تمام يا ريس".

بينما فى أسفل المبنى وقف اللواء (حافظ) منتظرا عبور الشارع..بجواره العميد (زكى) وكان يقول:

"أنا مش مطمن".

تنهد اللواء (حافظ) وقال:

"مفيش حل تانى".

ثم أشاح بوجهه بعيدا وعاد يتابع الطريق....

***

القرية....

دوار العمدة....

نهار اليوم التالى....

تثاءب (أبو الليل) وهو يتقدم إلى داخل البهو الكبير للدار..كان الحاج (محمد) جالسا عند نهاية القاعة ومعه بقية المجلس فارتفعت أنظارهم دفعة واحدة لتستقبل القادم الجديد....

"جرا أيه يا حاج محمد..كل يوم اجتماعات اجتماعات..ثم دى الساعة سابعة الصبح"

"يا (أبو الليل) خلى بالك طويل..أنت عارف إن اليومين دول أهم من أى وقت تانى..الصبر".

هكذا أنضم (أبو الليل) إلى الجالسين و لم يعلق.....

"يا أخونا أحنا كنا عايزين نراجع آخر الانجازات اللى حققناها..فى بعض الشكاوى برضوه من مجموعة من المواطنين..عايزين نراجع المواضيع دى كلها"

هكذا قفز (عمرو) وقد اجتاحه الجنون:

"شكاوى؟..شكاوى مين؟..شكاوى ميييييييين؟..دا أحنا دلعناهم ولبسناهم ونضفناهم"

"يا (عمرو)"

"شكاوى ميييييين؟..دا أنا لحد دلوقت صرفت على عشرين مشروع ومصنع بيشتغلوا فيه..كل اللى كان عنده مشروع ينفع وقفت جانبه لحد متخرب بيتى".

"يا (عمرو) مش كده..الناس كلها بتهتفلك فى الشوارع..ما احنا كلنا شايفين؟"

"بجد؟"

هكذا هدأ بغتة وقد انتشى وجهه بابتسامة راضية..قال الحاج (محمد):

"الشكاوى دى حاجات بسيطة..واحنا محتجينلها علشان نوجه جهودنا صح..هم أدرى بمشاكلهم برضوه"

ثم واصل:

"وبخصوص الخطوات والانجازات احنا فعلا لازم نذكر مجهود (عمرو أبو الليل)..الناس كلها بتتكلم والجرايد والتلفزيون شغال صبح وليل عليها".

"تمام والله".

"أحنا بس عايزين همتك فى الانتاج يا (عمرو)..تتابع مع الشباب لحد ما مشروعتهم تنجح..عايزين نشوف نتيجة المشروعات دى ودخلها اللى هيسند البلد..هو دا النجاح الحقيقى".

"عداك العيب يا حاج (محمد)".

"نفس الكلام بالنسبة لوزراة الزراعة اللى تخصنى..توزيع الأراضى على المواطنين تم بالفعل..وأنا كلمت الريس (جمصان) على الخبرا اللى جايين من الجامعة وعرفت إنهم جايين فى ظرف يومين علشان يشوفوا طبيعة التربة ويخصصوا الأراضى حسب طبيعتها علشان تتحد الأصناف اللى هتتزرع فيها..طبعا خريجيين كلية الزراعة أتوزع عليهم المساحة الأكبر وبعدهم الدبلومات وكل واحد وعلامه بعد كده..الناس على إتصال بينا علشان نتابع معاهم الأرض فصل فصل".

قال (أبو هاشم):

"والله يا حاج محمد ربنا يخليك للبلد".

"ويخليك ليها يا (أبو هاشم)..وأخبار الصحة أيه؟".

"والله أنا كان عجبنى تفكير الريس جمصان بخصوص موضوع الوحدات الصحية دى..أنا مريت على الوحدات الصحية بنفسى..الغير مؤهل منها هيتم قفله بالضبة والمفتاح لأن ضررها أكثر من نفعها والناس بتتعامل معاها على إنها بتقدم خدمة بجد وده مش حقيقى..ده غير الفلوس اللى بتترمى فيها على دكاترة وحكيمات وعمال أساميهم مكتوبة فى الدفاتر وبس..قصاد كده الوحدات شبه المؤهلة هيتم تطويرها علشان تبقى مستشفيات عادية والعادية علشان تبقى مستشفيات متخصصة وده أكيد هيقلل الشغل على المستشفى الجامعى..هنحط قوانين تحكم تحويل المرضى حسب خطورة حالتهم للمستشفيات بحسب مستوى المستشفى وتخصصها وهيكون فيه رقابة لأى تحويل ملهوش لازمة أو لحالات خطيرة

متمش تحويلها علشان الكل يشتغل والعيانين متدهدلش..الأهم إننا هنمرر دكاترة الصحة بالتناوب للتدريب فى الجامعة ودكاترة الجامعة للعمل بالتناوب فى بعض مستشفيات الصحة للإستفادة من خبراتهم".

ثم تنهد مرهقا وقال:

"وشكرا".

هز الحاج (محمد) فى رضا ممزوج بالشك..ربما من عدم التوقع!!!

"تمام يا حاج".

ثم استدار الحاج (محمد) إلى (الغريب) الذى لم يكن سعيدا جدا...

"مالك يا (غريب)؟..شكل فى حاجة مش عجباك؟"

رفع الغريب حاجبيه ببطء ثم أرخاهم وهو يقول ضاغطا على زناد كلامه:

"العفو يا حاج بس لا مؤاخذة يعنى كان عندى سؤال"

"خير يا (غريب)"

تراجع الغريب بظهره على كرسيه وقال:

"هو عم (جمصان) فين؟..مش ناوى يرجع ولا ايه؟..ولا أستحلى القاعدة فى وسط البندر والشوارع والأسفلت والبنات الحلوة وسبنا هنا نشله الشغل ونبيضله وشه".

رفع الحاج (محمد) رأسه ببطء وقد باغته ما قيل..نظر حوله فرأى العيون قد تراصت عليه كفرقة الإعدام.....

حرك شفتيه ثم قرر ألا يفعل..صمت..و لم يتكلم......

***

مقر المحافظة....

صباح نفس اليوم......

(جمصان) جالسا خلف مكتبه وقد بدا الارهاق واضحا على ملامح وجهه..كان منهمكا فى مراجعة الأوراق المزدحمة على سطح مكتبه..فكر لبرهة وحرك نظراته لمكتبه من ثم أعادها لرجل قوى يقف فى مواجهته..كان يحمل رتبة.....

"شكرا لإهتمامك سيادة العقيد"

ثم أشار له بالإنصراف قبل أن يجد هذا الأخير فرصة للتساءل......

"ممكن تتفضل".

"شكرا يا فندم"

قالها ثم استدار لينصرف وعلامات العجب على وجهه لا يكاد يكتمها..عند طرف الغرفة كان (ضاحى) و لم يكن بأقل منه دهشة....

"مش فاهم يا ريس..الظابط جايبلك تقرير بالمظاهرة الجديدة بتاعت إمبارح..دول هما هما بتوعوا المظاهرة الأولانية..برضوا الجماعات الدينية..حضرتك مأمرتش بحاجة ليه؟"

هز (جمصان) رأسه المنهك بلا معنى ثم رفع عيناه نحو (ضاحى)....

"(ضاحى)"

"أفندم يا ريس"

"عايز أقابل رؤساء الجماعات والأحزاب دى؟"

"ليه يا ريس؟"

"نتكلم"

"يا ريس كده هيفتكروا إنك خايف منهم"

تراجع (جمصان) مريحا جسده على كرسيه وهو يقول:

"بالعكس يا (ضاحى)..أى محاولات عنيفة هتقابل بمظاهرات أعنف..الرد بتاعنا هو اللى بيحمسهم أكثر..وفى الآخر أكيد هنتكلم..مش هنحاربهم للأبد..أحنا مش عايزين نفتح جبهات يا (ضاحى)..وبدل كده كده هنتكلم بلاش نصعد الموقف لحد ما الناس كلها تتفرج..وبعدها برضوا نخضع..منظرنا هيبقى مش أد كده".

"وأحنا نخضع ليه أصلا يا ريس؟"

"لأنهم قوة..وبيلعبوا من غير خوف لأن معندهمش حاجة يخسروها..لكن أنت عندك..والقوة دى لو مبقتش معاك هتبقى مع غيرك..ليه منحولش نكسبهم..الموضوع سهل..أى حاجة هترضيهم لأنهم أصلا ميملكوش حاجة".

هز (ضاحى) رأسه وقد انفصلت تماما عن الحوار...

"لكن يا (ضاحى) لما يبقى معاهم حاجة ولو بسيطة ساعتها هيخافوا عليها"

هز (ضاحى) رأسه مجددا فاتسعت ابتسامة (جمصان)..ابتسامة شاركها شعور عابر بالمرارة.....

"المهم يا (ضاحى)".

"أيوه يا ريس".

"المهم المظاهرات اتذاعت فى التلفزيون والصور اتنشرت ولا لأ؟"

"الحقيقة يا ريس.."

"ايه؟..مااتنشرت؟"

"لا يا فندم بصراحة كده انتشرت..أنا كنت هبلغ حضر..."

قاطعه (جمصان) بإشارة من يده...

"أنا بتأكد إن الناس دى نفذت أوامرى..كده تمام"

حدق فيه (ضاحى) طويلا...

"اللى تشوفه سعادتك"

"جهزلى الاجتماع اللى قلتلك عليه..تمام؟"

"أمرك يا ريس"

"وعايز أعرف أخبار تقارير الجامعة أيه؟..عايز تقارير رجالتنا وتقارير الرجال اللى بيرقبوا رجالتنا"

"مفهوم يا ريس"

هكذا استرخى (جمصان) فى كرسيه أكثر..وقال:

"على بركة الله"

***

مكتب رئيس مجلس الوزراء......

عصر نفس اليوم......

رئيس الوزراء متحركا أمام مكتبه..فى يده هاتفه الخلوى وحالة من الاستياء وعدم الرضا تشع من وجهه العابس وكلماته الغاضبة..حالة صارت تلازمه كثيرا هذه الأيام.........

"يعنى أيه يا سيادة الوزير؟"

"يعنى يا فندم أنا مش متفائل بنتيجة جولتى فى أوروبا..الكلام فيه حذر واضح وعامل زى تصريحات التلفزيون"

"أزاى يعنى؟"

"يعنى كله من نظام: أحنا بنراقب الموقف، اتجاهات الناس دى مش واضحة المعالم ،فى انتظار معرفة نواياهم فى المنطقة ، فى انتظار معرفة موقفهم تجاه حقوق الإنسان..مع وعد بدعمنا فى حالة حدوث أى تجاوزات!!"

"يعنى مكنش ليهم رأى تجاه موقف أمريكا؟"

"هم شايفين إن موقف أمريكا نفسه مش واضح..وبالتالى هتتحدد حاجات كثير بناء على الموقف الأمريكى".

"حاجات أيه؟"

"يا فندم ده تضيع وقت..مفيش فايدة..ده كان ناقص يقولوا متعملوش حاجة غير بأمرنا..هما نفسهم مش عارفين يتصرفوا أزاى وبيفضلوا الانتظار"

"وده موقف كل الدول؟"

"يا فندم دول زى ما يكونوا مذاكرين مع بعض..كله مشغل نغمت التروى..التروى".

"التروى؟؟"

قالها ثم انكمش وجهه حتى شارف التسعين من العمر..هوت ذراعه حاملة الهاتف وأرتاح رأسه على النافذة المجاورة....

وجد نفسه يهمس من بين أنفاسه المتحشرجة..لكن كلامه لم يكن مسموعا ربما لنفسه..شعور قاتل بالعجز.....

البخار البارد يتكاثف على النافذة مع أنفاسه..صوته يظهر من جديد ولكن أكثر وضوحا.....

"يا رب".

***

مقر المحافظة.....

صباح اليوم التالى.....

الممر الطويل بالطابق الثانى..كان (جمصان) فى أول الممر وإلى جواره رجلان لا يخفى على أحد من الناس انتماؤهم الدينى الواضح..كان الوقت مبكرا للغاية وكان الثلاثة يسيرون بتؤدة على الممر فيما بدا أنهم يلقون لبعضهم أطراف حديث هامس.....

"مش فاهم حضرتك عايز توصل لأيه؟"

هكذا واصل أحدهما الحديث.....

"عايز أوصلكم إن المظاهرات وسيلة..مش هدف فى حد ذاته..الناس هتشوفكوا أه لكن وبعدين..مش كل متعوزوا حاجة تنزلوا الشباب فى الجامعة وفى الشوارع علشان يتظهروا ويتكلم بلسنكم..الحوار هو الحل الأفضل..طبعا بسياسة المعقول"

"طلبتنا معروفة من قرون يا سيد (جمصان)"

"وأنا مش فانوس سحرى يحقق طلباتكم فى غمضة عين..أنا رئيس دولة بيحاول يخلق جو من الحرية فى بلده"

"قصدك أيه؟"

"إنتوا بتتكلموا عن قيام دولة إسلامية والعمل بالدستور الدينى..كلام جميل..بس أنا كرئيس مش منتظر منى مهما بلغت بيا ديموقراطية إنى أسيبلك الحكم وأمشى..أسمحلى دا هبل مش ديموقراطية"

"آمال طلبات أيه وحوار ايه اللى أنت عايز تكلمنا فيه؟"

"العقل والمنطق..أنتم عايزين تحكموا..وأنا عايز أحكم..وغيرى عايز وده حق الكل..خلاص..زى ما وعدتكم قبل كده هيكون

ليكم حزب زى غيركم..ومنه تتحركوا بمنتهى الشرعية..ممكن فى يوم توصلوا..بس بالقانون"

"ومين يضمن تنفيذ وعدك؟"

"من بكرة هيتم السماح ليكم بإشهار الحزب"

"بس هتفضل أوراق اللعبة فى إيدك..ممكن فى لحظة تقلب علينا وتلغى وجود الحزب ويمكن كمان ترمينا فى السجن".

"كنت عملت ده من دلوقت.. أنا هتكلم معاك بوضوح أكثر..اللعبة موزونة..فرصتكم الوحيدة فى الحرية وممكن فى الوصول للحكم هى من خلال وجودى هنا لأنى الوحيد إللى هعرض عليكم العرض ده..يعنى أنتوا محتاجين وجودى حتى لو كان حزبكم منافس للحزب اللى أنا هترأسه..بالنسبالى الموضوح مشابه..أنا كمان محتاج دعمكم وتأثيركم فى الرأى العام فى دعمى ودعم وجودى فى السلطة خاصة بين الناس..يبقى كده المصلحة أتوزنت".

وقف أحد الرجلين بغتة ومعه وقف الجمع..استدار الرجل لجمصان وعلى وجهه ملامح المشتت....

"هو أنت عندك شك فى مدى قوتنا وشعبيتنا؟"

"أكيد لأ"

"آمال مش خايف إزاى على كرسيك..أحنا كثير..وشعبيتنا مش قليلة..وممكن بالانتخابات نكتسح ونوصل بأسرع مما تتخيل"

نظر إليه (جمصان) ثم ابتسم....

"لو منجحتش وأنا على كرسى السلطة ومعايا كل المزايا
الصلاحيات اللى تخلى شعبي يثق فيا يبقى خلاص"

ثم ابتسم واستطرد:

"حلال عليكم"

تلاشى تعبير التحدى لتحل محله نظرات الدهشة..ثم وقف (جمصان) وقفة مباغتة وتغير تعبير وجهه إلى الصرامة قائلا:

"اتفاق؟"

هكذا فتح د (عبد المنعم) باب المصعد مغادرا أياه حين لمح (جمصان) فى طرف الممر وهو يصافح رجلين كان قد تعرفهما على الفور..وحين بلغ (جمصان) كانا قد انصرفا بالفعل.....

"عملتها يا ريس؟"

"متخفش يا (عبد المنعم)..الناس دى مش فاهمة..الناس دى تفقد نص قوته لما تتحط بره دايرة الإضطهاد..وتتحول من صحاب قضية لرجال سياسة..أنا ممكن ألمهم فى المعتقلات وأرتاح وأحافظ على كرسيا واللى هيدفع التمن هيكون البلد مش أنا..لكن أنا أخترت الطريق الأصعب..أنا هأهزمهم على أرض الملعب..والناس هم الجمهور".

ابتسم (عبد المنعم) وهو يتأمل (جمصان)..وسؤال ملح يتلاعب برأسه.....

لكنه لم يفكر أكثر......

***

القرية.....

دوار العمدة.....

الحاج (محمد) يغادر غرفته الواسعة حاملا هاتفه المحمول..يتحرك نحو ساحة الدار مترنحا فى حالة هى إلى النوم أقرب منها إلى اليقظة..كان ممتنا لأقرب مقعد صادفه فألقى بجسده المثقل عليه والهاتف ما يزال على أذنه..لحظات ثم قال:

"كله تمام يا ريس"

ثم....

"أيوه يا ريس..الناس مبسوطة وكل حاجة تمام..فعلا زى ما قلت..إمبارح كان المؤتمر الشعبى"

"الشكاوى كلها يا ريس بخصوص المياه والمجارى وحاجات كده"

"تمام يا ريس..أبعتلك فاكس بكل المشاكل دى..أنا فهمت الناس زى ما قلت إن الخبراء الأجانب..أقصد اللى جايين من الجامعة هينظروا مشاكلهم ويحطولها حلول".

"مفهوم يا ريس..الإنجازات بتمشى خطوة خطوة علشان الناس تحس بيها..بس أيه موضوع النوادى والمحلات الجديدة اللى حضرتك عايز تعملها دى".

"طبعا الناس مش هتصدق..بس أنا بسأل هنجيب حق الكلام ده كلوه منين؟..أحنا فلسنا"

"هتتصرف أزاى بس يا ريس"

"فلوس كتير؟؟".

"خلاص يا ريس اللى تشوفه..كله بوقته تمام"

"فى حفظ الله يا ريس".

ثم أغلق هاتفه وهو يتنهد..كان يكره ألا يفهم وهو أمر لم يعتده منذ بدأت هذه الهوجة المجنونة..لكنه كذلك لم يكن قادرا على التصرف..كانت مفاتيح اللعبة كلها فى يد (جمصان) وكان هو الوحيد القادر على التفكير والتحرك......

"ده (جمصان) يا حاج؟"

أجفل الحاج (محمد) ثم استدار إلى غرفته..هكذا رأى وجه (بهانة) الممتلئ فى مواجهته..كانت قد استيقظت بدورها على صوت حنجرته القوى وقررت أن تبدأ يومها....

أخذ نفسا ثم قال:

"أيوه يا بهانة"

"وحضرته مش ناوى يشرفنا ولا خلاص شال أيده من الحكاية وسابك أنت للشقا والبهدلة".

كانت تقديمتها مثيرة للأعصاب..هكذا وجد نفسه وقد انفجر فيها على غير عادته...

"جرا أيه يا بهانة..أيه الكلام الغريب ده؟..ما الراجل شغال وطلعة عينه زينا بالظبط..ورغم شغله اللى بالكوم هناك بيتابع معانا لحظة بلحظة..هيموت نفسه يعنى".

بدا وكأنها كانت جاهزة لهذا النوع من الجدال...

"والله يا حاج شكل الراجل اللى أسمه الغريب ده كان عنده حق..هو خلاص ريح نفسه فى النظافة والوجاهة وأشى تلفزيون النهاردة وأشى جرايد بكرة..وسابك أنت والرجالة هنا تكحوا التراب..دا حتى هو قاعد هناك محمى بعساكر والظباط وأنتوا يا غلابة متسابين فى الشارع مفيش حواليكم غير كام عسكرى وغفير عمى..هو يلهط القشطة ويسبكوا أنتوا تشيلوا الطين..أنا ياما قلتلك أنوا واخد تعبك وعرقك وعامل بيهم كبير".

ولأنه لم يكن قادرا على هذا النوع من الجدال ولأنه كان – حتما – غارقا فى أفكاره السوداء التى لا تنتهى لم يكن بمقدوره إلا أن يوقف فيضان كلامها بنظرة حاول أن يجعلها صارمة..ثم هب واقفا......

"أنتى أيه يا ولية؟..أهمدى"

قالها ثم استدار..وتركها وانصرف.....

***

مبنى المحافظة.....

(جمصان) أمام مرآة مكتبه..يضع اللمسات الأخيرة على حلته الأنيقة بينما وقف (ضاحى) كقطعة أثاث بجوار الباب..لم يتكلم حتى انتهى (جمصان) واستدار إليه قائلا:

"وصلوا يا (ضاحى)".

"وصلوا يا ريس".

تناول (جمصان) الملف الذى يحمل أسماء المختارين من الأساتذة لمجلس الإستشارى..راجعها بنظرة سريعة ثم أغلق الملف ونظر ضاحى:

"كلهم حضروا".

"من ساعة يا ريس".

ثم تنحنح (ضاحى) فنظر إليه (جمصان) بمعنى الاستفهام...

"سؤال بس يا ريس"

"أسال يا (ضاحى)"

انفرجت أسارير (ضاحى) وقد قرر أن يحسم تردده:

"يا ريس أنا كنت فاكرك هتختار د (عبد المنعم) أول واحد..لقيتك مختاره مساعد مستشار..يعنى حتى مش مستشار"

ابتسم (جمصان) فى خيلاء ورضا..وضع يده على كتف (ضاحى) ثم سار به خطوتين للأمام....

"بص يا (ضاحى)..بالنسبة للدكتور (عبد المنعم) أنا فهّمته إن ده ضرورى علشان الديموقراطية..علشان ميتألش إنى أخترت د (عبد المنعم) بصورة استثنائية مش بمعايير محددة زى باقى الأساتذة لأنه مقرب لي..بالتالى هيكون فى المكان ده بصورة مؤقتة لحين مرور وقت مناسب يقنع الناس بتصعيده..ده هيدى ثقة أكثر فى النظام..أما بقى السبب الحقيقى فهو إنى سواء حبيت ولا محبتش الناس كلها حست إن د (عبد المنعم) ليه وضع ومكانة خاصة هنا فى مؤسسة الرئاسة..مش من مصلحتى إنى كمان أحطه فى مكان

ملوش سقف..ده هيخلى الناس تخاف منه أكثر وتحاول تتقرب له..شوية بشوية هيبقى مركز من مراكز القوى ومش هقدر أسيطر عليه".

وقف (ضاحى) لوهلة محدقا فى وجه (جمصان) الذى ضحك وقال:

"مش مهم يا (ضاحى)..مش مهم"

ثم ربت على كتفه وقال:

"المهم أخبار الأحزاب أيه؟"

"زى ماحضرتك أمرت كنت مع الدكتور (عبد المنعم) النهاردة وخلصنا الإجراءات القانونية بتاعت الحزب بتاع الجماعة أياهم وفى حضورهم زى ما حضرتك أمرت..وبرضوا إجراءات الحزب بتاعنا..وطبعا ضمينا كل الأساتذة اللى حضرين الإجتماع النهاردة للحزب".

"ممتاز"

"بس يا فندم..أنا ليه عندك طلب"

"خير يا (ضاحى)؟"

"موضوع الأحزاب ده؟..عايزك تقعد معايا قاعدة وتفهمهولى بالراحة"

"ضرورى يا (ضاحى)..بس دلوقت نحضر الاجتماع وبعدها ربنا يسهلها"

"حاجة أخيرة يا ريس"

"خير؟"

"التقارير السرية اللى جاية من البلد..الناس كلها بتهتف ليكم كل حاجة عال..بس الناس كلها بتعتبر إن الحاج (محمد) هو الكل فى الكل..ونسيوك خالص يا ريس"

ابتلع (جمصان) قنبلة غيظه فى عشر ثانية وأمسك بلجام هدوئه من جديد قبل أن تكشف ملامحه ما دار بعقله..حاول أن يبدو عاقلا وقال:

"عارف يا (ضاحى)..دا مش ذنب الحاج (محمد)..الراجل شايف شغله ومش بيحاول يعمل حاجة لنفسه..دى غلطتى من الأساس..خلينا نحضر الاجتماع الأول وبعديها نتفاهم"

ثم تقدمه وفتح الباب..وسار بخطوات واسعة حتى وصل إلى مدخل القاعة..هكذا فتح رجل الأمن بابها فى سرعة ليدلف إليها (جمصان) بإعتداد فى حين وقف الجمع ليستقبلوه بحرارة.....

الإشارة بالجلوس ثم...

"أكيد يشرفنى إنى أكون معاكم..وأحب أعرفكم إنى هنا علشان عمل تغيير..ومن اللحظة الأولى..أحب أطرح مشاكل الدولة اللى عندى واللى لخصتها من أراء المواطنين وشباب الجامعات علشان سمع منكم حلول غير تقليدية..وأحب أعرفكم إنكم هنا فى مرتبة مجلس للوزراء".

ثم نظر لضاحى بحذر وأردف:

"مع كل التقدير لوجود مجلس حالى قادر وفاعل للوزراء"

ثم نظر إلى د (عبد المنعم) والذى جلس فى أحد أركان القاعة..هكذا هز الأخير رأسه فى فهم و لم يتنفس...

***

القرية....

بيت (الغريب)...

يقف هذا الأخير على سطح بيته وبجواره رجل خبيث الشكل..كان غائصا فى جلبابه متلفحا بشاربه وقد مال على الغريب قائلا:

"كله تمام يا كبير..أقدر أقلك دلوقت إن رجالتنا مزروعين فى كل حتة فى البلد..زى ما أمرت..دبة النملة هتكون عندك".

"أنا عايز دبة النملة فى كل بيت فيك يا بلد..حتى بيوت الوزرا ذات نفسيهم..فهمنى يا (سليمان)"

"فهمك يا كبير..بس من غير مؤاخذة كده يا كبير..ليه دا كله؟"

استدار له الغريب لتغطى الظلال وجهه عن وجه الشمس..عقد حاجبيه فعاد مخيفا كالأيام الخوالى..هكذا ارتجف (سليمان) لوهلة وقد خشى ألا يكون سؤاله فى محله....

"لأن ده الصح يا (سليمان)..البلد دى محتاجة راجل بجد علشان يحميها..بس محدش فاهم..جمصان لسه عيل صغير..وأهو ساب البلد ومشى..والحاج (محمد) رجل طيب..الشغلانة دى يلزمها حاجات

هم بكثير من الطيبة..أنا بأمنهم وأمن نفسى وبحافظ على اللى أحنا عملناه..أنا مش ناوى أرجع الجبل تانى يا (سليمان)".

"بعد الشر يا كبير"

"يبقى تسمع كلامى..أنا هعرف أمشى البلد دى بطريقتى"

ثم استدار إلى الشمس من جديد وقال:

"وهأعرف أخد حقى".

***

القرية......

دوار العمدة....

كان الحاج (محمد) جالسا على كرسيه مبلبل الأفكار..وبجواره جلس (أبو هاشم) وعلى وجهه إمارات تفكير عاجز..كانا فى ساحة المنزل وكان النهار قد انتصف....

"مش فاهم يا حاج (محمد)".

"زى ما بقولك كده..الريس (جمصان) أمر نوقف كل حاجة لمدة أسبوع..نوقف كل المشاريع"

"ليه؟..مسألة فلوس يعنى؟..أحنا لسه مفلسناش..ثم إنه سبق وقال منشلش هم الفلوس وإن أحنا نكمل وهو هيتصرف ".

تنهد الحاج (محمد) وقال:

"مش مسألة فلوس يا (أبو هاشم)..لو فلوس كان قال"

"آمال مسألة ايه؟"

صمت الحاج (محمد) كاظما ضيقه...

"والله ما أنا عارف"

"ده أكيد اتجنن..الناس كده هتاكلنا أكل..بعد ما عشمناهم".

"أهدى يا (أبو هاشم) ميصحش كده..أنا هأعرف أهدى الناس..ثم إن (جمصان) قال دى موهلة أسبوع مش أكثر"

ظفر (أبو هاشم) أنفاسا حارقة وقد هم بالإنصراف...

"والله ما أنا عارف أخرة (جمصان) ده أيه..هو فى دنيا وأحنا فى دنيا تانية خالص".

تنهد الحاج (محمد) قائلا:

"نصبر يا (أبو هاشم)".

قالها ثم نظر إلى السقف بلا معنى..ثوان ثم أردف:

"نصبر"

***

الإعلام اليوم

جريدة الإجرام (جريدة حكومية):

"عودة وزير الخارجية إلى أرض الوطن بعد جولة ناجحة لعدد من دول الاتحاد الأوروبى".

جريدة ضيق البلعوم وهى جريدة معارضة:

"بعد نجاح انقلاب شؤلاط..استنفارات أمنية خوفا من تكرر الموقف فى أنحاء أخرى من الجمهورية"

جريدة صوت شؤلاط وهى جريدة جديدة حلت محل الجريدة المحلية السابقة:

"مشروعات متميزة وخطوات جادة فى طريق الإعمار بشؤلاط..إعلان قيام الأحزاب الجديدة فى وجود مساحة من الحرية لإقامة الأحزاب الدينية".

***

قناة البحيرة:

يستدير المقدم بكرسيه اتجاه الشاشة الأولى ويقول:

"أستاذ (منصور)..بما إنك آخر من تبقى ممن لم نقم بإستضافتهم بخصوص أحداث شؤلاط..ما رأيك فى هذه الأحداث؟"

ثم يظهر الوجه العابس على الشاشة.....

"هأقول أيه..الناس كلها شايفة الإنجازات اللى مالية البلد وبتحاول تزقل بالطوب..يا جماعة ممكن تكون فيه شوية مشاكل

أمنية فى شؤلاط بس الموضوع عمره ميوصل للى بيتقال ده..هو فيلم أمريكانى ولا....."

"حسنا..حسنا"

ثم يدور ويتحدث إلى الشاشة الثانية:

"أستاذ (عادل)..بصفة حضرتك رئيس حزب (مفيش..ولا حتى القراقيش)..ما هو موقف حضرتك من أحداث شؤلاط وكيف ترى مستقبل الموقف الأمنى الخطير هناك؟"

تكلم الصوت من الشاشة الثانية وكان عابسا ايضا:

"أنا فى الواقع مش حابب سياسة التعتيم الساذجة واللى أنتهت موضتها من السبعينات واللى بتحاول الحكومة تستخدمها لحد دلوقت..العالم كله شاف الحقيقة والموضوع النهاردة مستحيل السيطرة عليه..لازم نعترف..فيه كارثة بتهدد مستقبل البلد وفيه فشل حكومى فى التعامل معاها..واضح إن علاقتنا بأمريكا مش متميزة زى ما كنا بنقول!!".

ثم سكت..هكذا اعتدل المقدم وقال:

"أستاذ (عادل)..هل يوجد لديك ما يقال أيضا؟"

"الحقيقة يا فندم..لو كنت نسيت أتكلم عن الشفافية أحب أقول إن أهم حاجة هى الشفافية..الشفافية"

"شكرا جدا أستاذ (عادل)".

***

القرية.....

صباح يوم آخر....

استرخى (بسطاوى) على كرسى يشبه تلك التى تعرفها لشواطئ..تمدد وقد احتضنه ظل شجرة ضخم ليذيب ذرات جسده فى الهواء..مبسم النرجيلة بين شفتيه وعيناه تراقبان الأرض وتتابعان لأذرع المتحركة هنا وهناك فى تراخ ممتع..ثم أراح جفنيه من جديد وقال:

"الحمد لله يا (سعد) على النعمة".

كان الآخر إلى جواره وكان قد اتخذ جلسة مشابهة..كان يقول:

"الحمد لله والله..الدنيا أحلوت والأشية بقت معدن".

"والله يا (سعد) أنا مش مصدق اللى بيحصل ده..دا أحنا كنا مدفونين يا جدع..البلد بقت حاجة تانية خالص".

"بس فيه والله كلام كده مش ولا بد بيتقال اليومين دول".

انتفض (بسطاوى) مذعورا فاستطرد (سعد):

"بيقولوا المشاريع كلها وقفت..أنا كمان لاحظت إن الدنيا مديت مرة واحدة".

"وده ليه؟؟؟"

"ناس كتير خافوا وراحوا إمبارح للحاج (محمد) علشان يستفسروا..بس هوا طمنهم..بيقول منتظرين الخبرا اللى جايين من لبندر".

تنهد (بسطاوى) وقال:

"يا خوفى"

"متخافش..الحاج (محمد) عمره ما يكدب".

همس (بسطاوى) وهو يعود لجلسته المسترخية:

"أصل الواحد ما صدق يا أخوى..ما صدق".

***

القيادة الأمريكية

صوت حازم فى الهاتف....

"أوامرك سيادة الرئيس"

"أعتقد إن الأمور ماشية زى ما أحنا عايزين..تقارير عيونا وتقارير المرقبين بتأكد ده..رئيسهم بيتصرف كأنه واحد من رجالتنا..ذكاؤه بالفعل أعلى من توقعتنا".

"ده حقيقى..رأى حضرتك؟".

"رأىّ إن القرار الحاسم جاه أوانه..عايز دعوة رسمية لرئيس الجماعة دى..هنبعتله طيارة خاصة على سبيل الهدية لأنه أكيد لسه مايملكش طيارات..عايز العالم كله يذيع اللقاء ده".

"أمرك يا فندم".

"نفذ"

تيت..تيت..تيت

***

-١٥-

مبنى المحافظة....

صباح يوم جديد.....

(جمصان) عاقدا حاجبيه ومستندا بذراعيه المعقودين على مكتبه..بدا متوترا لأول مرة منذ زمن بعيد..كان د (عبد المنعم) جالسا فى المواجهة وقد كان البادئ بالكلام..كان أقل توترا..ربما راضيا كذلك....

"أعتقد إن الزيارة دى هى البداية يا ريس..دى الخطوة الأولى..بعدها دعم العالم كله هيبقى تحت رجليك..أنت النهاردة بس تقدر تقول إنك رئيس..ورئيس قوى كمان".

ظل (جمصان) صامتا يفكر..للحظة بدأت الأفكار تتداعى إلى عقله من كل صوب كالجراد..فقط أوقفه صوت (ضاحى) وهو يقتحم غرفة مكتبه كالطفل وجعله يجفل....

"يا ريس..يا ريس..الطيارة..الطيارة".

كان صوت الطائرة المروحية قد بدأ يتعالى بالفعل..هكذا اتسعت ابتسامة د (عبد المنعم) وقال:

"ترجع بالسلامة يا ريس".

هكذا نهض (جمصان) وقد حسم أمره..أغلق سترد ووقف باعتداد ثم قال:

"استمروا كأنى موجود بالظبط..أنا مش هتأخر"

ثم تمتم ببعض كلمات وانصرف.....

لم تستمر زيارة (جمصان) المرتقبة سوى يوما واحدا فقط..لكنه — لا شك — كان مزدحما بتغطية إعلامية غير معتادة..كذلك كان المؤتمر الصحفى المشترك..ورغم كلماته القصيرة ومضمونه غير المحدد لكن الرسالة المطلوبة كانت قد وصلت للعالم بوضوح..كان هذا هو المطلوب لكلا الطرفين..فيما بعد ذكر (جمصان) فى أوراقه أن الولايات المتحدة قد طلبت منه صراحة أن يفتعل بعض المشكلات معهم من حين لآخر بخصوص قضياه وقضايا المنطقة حتى لا يتهم بالانصياع التام فيثير حفيظة شعبه..هذا يقويه أمام خصومه ويضمن له الكثير من الاستقرار..كلام مقنع بالطبع وقد قرر (جمصان) أن يضعه ضمن حسابته فى الأيام القادمة..كذلك كان الكلام عن الدعم الاقتصادى..الأموال والإمدادات الحربية..هذا يضمن له الكثير من القوة فى حال تعرضه لمواجهة عسكرية كما أنه يضمن لأمريكا حليفا قادرا فى المنطقة......

هذا ما قاله (جمصان) فيما بعد لكن أحدا لا يعرف ما الذى جرى فى الكواليس.....

***

القرية.....

دوار العمدة.....

اليوم التالى للزيارة.....

الحاج (محمد) واقفا أمام الدار وبجواره الوزراء..خلفهم سرادق مهيب ممتلئ بالحشود المتحمسة..صور (جمصان) فى كل ركن

والأعين المشدوهة تراقب فى ذهول طائرته المروحية وهى تهبط نحو الساحة الخالية بالقرب منهم.......

الكل يهلل..الأصوات المتداخلة تكاد تحجب الرؤية والعاصفة الترابية من حولهم تخفى كل شئ كالستار..طائر رخ ضخم يأتى من عقول الماضى السحيق ليغزو تلك البلد البسيط ويذهل أهلها إلى الأبد..لحظات ثم استقر الكائن الضخم على أرض الساحة وصوته الهادر يعوى فى كل اتجاه فيخلع القلوب..ثم ثوان أخرى حتى بدأ بابه الحديدى ينفرج ليخرج جعبته إلى الناس..ومن بين الهتافات الهادرة باسم (جمصان) لم يجد صوت الحاج (محمد) مكانا يتردد فيه..كان قد أصابه الذهول بشلل تام وكذا كان جميع رفقته..كان يهمس:

"إزاى؟..دا أحنا من شهور كنا مع بعض فى حضن الجبل عايزين حيطة تدرينا..أزاى؟"

شعور بالتضاءل جعله يتحرك فى بطء..يرى شبح (جمصان) وسط العاصفة فيغطى عينيه..عاصفة من الهتاف كمن يقابل طللا......

لكنه ينبغى أن يكون فى المقدمة.....

هكذا تدارك الرجل ذهوله وتقدم مسرعا ومن معه..للحظة تناسوا كل شئ وراحوا يسلمون عليه كنجم سينمائى..هو أيضا شعر بذلك..كانت رائحة العطر الفاخر للرئيس الأمريكى لم تغادره كفه بعد لكنه ظل متمسكا بعقله..هكذا لوح للجميع وصافح من

يستطيع أن يصافح..تركهم يهتفون بحياته ثم دعاهم إلى المؤتمر الشعبى بصعوبة..كان الحشد قد أصيب بخبال الفرح..لكن (جمصان) كذلك لم يغفل ما حدث من تغيرات فى قريته..شعر بالرضا وقد علم أنه فى هذه اللحظة بالذات قد تحول كل شئ ليصير بفضله..لك أن تسأل كل هؤلاء الحشود عن هذا....!!

"حمد الله على السلامة يا ريس".

"الله يسلمك يا حاج (محمد)"

تقدم (جمصان) نحو الصوان وخلفه عدد من الرجال فى ثياب أنيقة..لمسة إضافية لوجاهة (جمصان) الذى صار له بالفعل شكل الرئيس..فى ثوان عرف الناس أنهم الخبراء فزاد الفخر والتهليل.....

مضت دقائق حتى أعتلى (جمصان) المنصة ومن حوله الوزراء..دقائق أكثر كى يهدأ هذا الجمع الفائر........

"أشكركم يا رجالة..أشكركم بجد..الحمد لله اللى وفقنا لكل ده بفضل وقفتكم..مفيش شعب فى الدنيا زيكم والله".

هكذا تعالى الصياح الأحمق.....

"أنا ملاحظ إن اللى طلبته من الحاج (محمد) كله اتنفذ تقريبا..البلد فعلا بتتطور..أحب أعرف لو كان فى حاجة قلقاكم أو شكوى عندكم قبل ما أبدأ الكلام".

كان (جمصان) قد رمى طعمه عالما بمدى سذاجته لكنه كان واثقا من أنه سيفلح..كان (جمصان) يحب أن يخطط لكل فئة بمقدار

عقلها.. لم يكن يحب أن ينهك نفسه بخطط تتجاوز ما يستحقه تفكير الهدف..هكذا ألقى الكلمة وبقي ينتظر النتيجة....

حالة من الصمت...

"لا يا رجالة..مفيش سكوت..مفيش خوف وأنا موجود".

هكذا اندفع الجميع دفعة واحدة كالحمقى.....

"يا ريس المشاريع كلها وقفت..أحنا مش عارفين ليه؟..عايزين طمن من حضرتك"

هكذا ابتسمت روح (جمصان) راضية لكن وجهه أخرج قدرا مناسبا من العبوس....

صاح غاضبا:

"وقفت؟"

ثم خاطب الحاج (محمد) في حزم:

"أيه الحكاية يا حاج (محمد)؟"

نهض الحاج محمد وقد أصابه عته الحيرة.. لم يعرف ماذا يقول...

"أ..أبدا يا ريس كنا في انتظار الخبرا"

"خبرة أيه بس يا حاج (محمد)؟..والناس دى نعطل مصالحهم ونوقف فرحتهم ببلدهم ليه؟"

ثم استدار إلى الجمع وصاح في حماس:

"يا رجالة مفيش مشاريع هتقف..والخبرا أهم معانا..الفلوس كثير والحمد لله وبحب أقولكم إن دعم مشاريعكم هيضرب في

اتنين..أنا هأكون موجود بنفسى علشان أتأكد إن مفيش توقف تانى".

ارتفع التهليل والصياح..بينما حدق الحاج (محمد) فى وجه جمصان بنظرة من فهم أخيرا..شعر بالامتعاض لكن (جمصان) تجاهل نظراته تماما..وواصل حديثه من بين هتافات الناس التى لا تتوقف.....

***

القرية...

نفس اليوم....

كانت الشمس قد أوشكت على المغيب حين انتهى المؤتمر الشعبى المجنون وبدأ الناس فى الانتشار مغادرين..يمشون فى كل اتجاه وألسنتهم لا تكف عن الكلام.....

"أيوه نتكلم..الريس (جمصان) قال كده..مش قال عايزكم تخدوا راحتكم..عايزكم تتكلموا..قطعوا فى فروتى حتى ولا يهمكوا"

"والله يا (بسطاوى) يا بختنا بالريس (جمصان) ده..ده كان فين من زمان؟"

"كفاية يا (سعد) إنه أمر باستمرار المشاريع وجاب الخبرا معاه..ده رجع لنا الروح..لأ وكمان شويه الحاجات الحلوة اللى ناوى يعملها..الرجل ده مش بيكدب وكل اللى بيقوله بيعمله"

"كويس إنه جاه علشان نقله على المشاريع اللى وقفت".

"فعلا..أهو بكلمة منه الأمور هتمشى من جديد..والفلوس تزيد الضعف"

هكذا توقف (سعد) فوقف (بسطاوى)..ثم همس:

"أنا مش عارف هى الدنيا وقفت ليه من الأول..والله الحاج محمد) راجل طيب الواحد مش عايز يظلمه".

"الله أعلم يا (سعد)..الفلوس ياما بتغير..كويس إن الريس جمصان) جاه".

ثم أكملا الطريق....

***

القرية.....

دوار العمدة.....

مساء نفس اليوم.....

(جمصان) جالسا فى غرفة المكتب بالدار..جسده ملفح بجلباب اسع نظيف وفى يده عصا يكمل بها وجاهته الإجتماعية..كان لوقت ليلا وكان الجميع فى نوم عميق..فقط هو ورجل بسيط الهيئة قد وقف أمام مكتبه يرتعد.......

"أنت (زكى)؟"

"خدامك يا ريس"

"(ضاحى) بيقولى كلام كويس قوى عنك يا (زكى)..هو بيثق فيك وبيعتبرك أخلص رجالته"

"يا ريس أنا خدمكم"

"أنا متعود يا (زكى) إنى أعرف أخبار البلد من (ضاحى)..طبعا الأخبار دى كلها بيجمعها منكم..دلوقت أنا هنا وأحب أعرف أخر الأخبار منك بنفسى"

"يا ريس أنا حظى حلو إنى عرفت أشوف سيادتك علشان أقولك أخبار رجالة الغريب..الموضوع طول والناس عايزاك تتصرف يا ريس".

عقد (جمصان) حاجبيه..لم يكن قد سمع عن هذا الأمر من قبل لكنه أزال هذا التعبير ليشجع الرجل على الاستمرار.....

"عملوا أيه تانى دول؟"

"يا ريس دول فجروا..بقوا بينقولوا دبة النملة ليه..ويا ويله اللى يقول كلمة واحدة على الغريب..يضيع..ممكن تتكلم عن التخن تخين فى البلد براحتك لكن هو لأ..دول بقوا فتوات..بينهبوا والناس مبتقدرش تيجى جنبهم..بقى شوية حثالة زى دول قربوا يبقوا أسياد البلد..لا مؤاخذة يا ريس"

"عصابة يعنى؟"

ثم صمت (جمصان)..أعطى لنفسه برهة قصيرة للتفكير ثم قال:

"بص يا (زكى)..أنت ولد جدع وأنا هكفأك بس عايزاك فى خدمة صغيرة".

قال الشاب ملهوفا:

"أمرك يا ريس".

"(ضاحى) ميعرفش إنى شوفتك..ده أولا..ثانيا عايزك تشغلى كام واحد كده يكونوا مش محروقين علشان يكونوا على اتصال يا..رجالة جداد مش من رجالة (ضاحى)..عايزهم ينقوللى كل خبار البلد بما فيها أخبار رجالة (الغريب) وأخبار الوزرا وحتى رجالة (ضاحى) نفسهم..فاهم؟..رجالة (ضاحى)..عايز أعرف إذا كانوا بينقلوا الأخبار زى ما بتحصل ولا على مزاجهم".

"أمرك يا..."

هكذا وجد الشاب مبلغا ضخما من المال يلقى إليه فشهق....

"ريس..."

"بصراحة يا (زكى) ، (ضاحى) أتعود على العز ومعدش نافع..وأنا حاسس إنك مفتح عنه وتعرف تشيل الشغلانة"

ثم مال عليه وهمس:

"شغلانة الوزير".

ارتجف الشاب فى حين قال (جمصان) باسما:

"ورينى الهمة بس واثبت كفاءتك"

"أمرك يا ريس".

قالها الشاب فى حماس جارف..إشارة خافتة من يد (جمصان) وكان الشاب قد انقشع.....

لم يكن (جمصان) يعرف السبب الحقيقى وراء إخفاء (ضاحى) لهذه الحقائق..هل يفترض سوء النية أم يفترض أنها مجرد مجاملة حمقاء لرجل قوى الصلة به هو الغريب......

فى النهاية كلها احتمالات لا ترضيه..فقط لم يحن الآوان بعد.....

هكذا رفع (جمصان) هاتفه وقام بمكالمة....

"أيوه يا غريب.."

كان حازما.....

"أنا شفت الظروف مش مناسبة لما وصلت إنى أكلمك فى الموضوع ده..بس كان لازم اليوم مايعديش غير لما أكلمك فيه"

"خير إن شاء الله"

"بص يا (غريب)..إنت وزير..وأنا سايب البلد أمانة فى ايديك..واللى بيعمله رجالته ده بيدمر كل حاجة أحنا بنعملها".

"من غير لف ودوران ومن غير متتعصب..أنا بحافظ على قوة اللى بينا وعلى اللقمة والفرشة اللى ياما خمسنا فيها..إحنا أعداءنا كثير وعايزين نركز معاهم..يعنى اللى بيعملوا رجالتك لا ده وقته ولا مكانه"

"قلت من غير عصبية..أنا متأكد من اللى بقوله..الموضوع ده وصلنى من أيام وأنا أجلت الكلام معاك لحد ما اتأكد..يا (غريب) أنت مش محتاج كل ده علشان البلد تعرف قيمتك..بس لازم برضوا تحترم وجودى".

"أنا مش هتكلم فى الموضوع ده تانى..أنا واثق إنك هتحكم عقلك..أنا مش هسألك".

ثوان ثم....

"فى حفظ الله"

ثم أغلق هاتفه محاولا السيطرة على ملامح وجهه..ثم تراجع فى مقعده وقد قرر أمرا..........

***

القرية....

دور العمدة.....

نفس الأمسية.....

غرفة نوم الحاج (محمد) والأخير متمدد فى فراشه..عابس الوجه وبجواره (بهانة) نصف جالسة وقد قررت أن تقوم بما تعرف أن عليها أن تفعله....

"قلت لك يا حاج..(جمصان) ده مش سهل..شوفت اللى عمله فيك فى المؤتمر..أنت تتعب وتملك وهو يعمل البطل".

أشار لها الحاج (محمد) ناهرا وقال:

"أنزلى من فوق دماغى يا بهانة مش نقصاكى"

"يا أما قلتلك..أنت اللى تستحق تبقى الريس مش هوا..بس انت اللى طيب بزيادة علشان كده...."

هكذا انفجر الحاج (محمد) على غير عادته...

"بس يا (بهانة)..أخرسى مش عايز أسمع حسك".

صمتت كاظمة أنفاسها فى حين زفر هو باثا حمم أنفاسه فى كل مكان..قال بصعوبة:

"ملعون أبو المريسة اللى هتجننك دى..أنا مش عايز حاجة..أنا بعمل ده لوجه الله..مش عايز من حد حاجة".

"بس ده حقك ولازم...."

أشار لها بحزم أن تتوقف وقال:

"خلص الكلام..نامى وأنتى سكتة يا (بهانة)".

هكذا صمتت (بهانة)..كتمت غيظها وتدثرت بالغطاء لكن الحاج (محمد) لم يحرك ساكنا..بقى فى وضعه وقد تيقن بأنها ليلة بلا نوم.....

ظل كما هو وشعور بالمرارة يكاد يخنقه...

***

القرية...

دوار العمدة....

صباح اليوم التالى....

ارتشف (جمصان) مجددا من قدح القهوة الذى أمامه..إلى جانبه كان الدكتور (عبد المنعم) وكانت علامات النوم بادية عليه..كان الأول يقول:

"زى ما قلتلك..دور مجلس المستشارين بالنسبة ليا حيوى..بصراحة أنا شديد الانبهار بالأفكار والمقترحات اللى عرضها الأساتذة الأسبوع اللى فات ومتأكد إن تنفيذها هيعمل فرق كبير..فعلا البلد فيها طاقات جبارة لازم تستغل..والخطوة

لجاية هى إنشاء مجلس مشارك من الشباب..أعتقد إنه فعلا هيكون تجربة رائدة".

"ثقة غالية يا ريس".

"الحقيقة إن مجلس المستشارين هو اللبنة الأساسية لمجلس الوزراء القادم..لكن أنا مقدرش أقول ده دلوقت لأنى بالفعل أملك مجلس للوزراء..ودول ناس اتحملت كتير علشان الدولة الجديدة غير إنهم ناس ليهم قوتهم ومكانتهم فى البلد..مقدرش اتخلص منهم ببساطة..أنا بكلمك يا (عبد المنعم) كأنى بكلم نفسى بالظبط".

"مفهوم يا ريس".

ثم أخذ د (عبد المنعم) نفسا عميقا وقال:

"بالمناسبة يا ريس..مستشار حضرتك للشئون الخارجية اتصل كنت حضرتك بتفطر فمحبش يزعجك".

"خير؟".

قالها وارتشف رشفة أخرى....

"خير يا ريس..إيران بتكرر عرضها لتباحث سبل التعاون لاقتصادى والسياسى بين البلدين..فى حالة الموافقة هما مستعدين لإرسال مبعوث رفيع المستوى لشؤلاط فى ظرف أسبوع".

"ممم..ورأى المستشار أيه؟"

"والله هو محتار..مينفعش إننا نلعب على الحبلين لأن ده مش هيرضى حد منهم..والاختيار صعب..أمريكا هى القوة..الفلوس..التسليح..والسطوة السياسية وهى فعليا اللى

بتحمينا..لكن إيران هى خط الرجوع لو فكرت أمريكا تبعنا لمصلحة حد تانى..ساعتها التحالف مع إيران هيكون الشوكة اللى هتخليهم يفكروا كثير..لأن أمريكا مش عايزة مواجهة غير مدروسة مع إيران..إيران برضوا تحب يكون ليها حليف فى قلب المنطقة..دة بالنسبة ليهم إنجاز حتى لو كنا دولة صغيرة..متنساش إن موقعنا أكثر من ممتاز..أنا قلت لحضرتك وجهة نظر مشابهة لما سألتنا أول مرة..المشكلة إن إيران كررت العرض ومنتظرة رد".

"يعنى نراهن على الحاضر ولا المستقبل".

"للأسف إحنا محتاجين الاتنين"

"الناس دى محتاجة حلول قاطعة".

ثم فكر للحظة..حدق فى وجه د (عبد المنعم) وقال:

"الحاضر أولى يا عبد المنعم..لكن برضوا أنا مش عايز ردود حاسمة..أبعتوا فاكس للسفارة الإيرانية بإننا فى انتظار الضيف الكريم..وأكيد هنعرض أفكاره على مجلس الوزراء علشان نشوف هى ماشية مع توجهتنا ولا لأ".

"علم يا ريس..الحاجة الأخيرة بقى إن فيه بعض الدول العربية أعلنت تعاطفها مع الأوضاع الإنسانية المتردية اللى بنعشها نظرا لظروف نقص الموارد وظروف الحرب والحصار وقررت إرسال مساعدات مادية لمساندة شعب شؤلاط".

رفع (جمصان) حاجبيه فى دهشة ساخرة....

"غريبة..مع إن أوضاعنا دلوقت أحسن من الأول".

ثم نهض وقال:

"أعرض عليا الكلام اللى يستاهل بس يا (عبد المنعم)".

ضحك د (عبد المنعم) وقال:

"أمرك يا فندم".

ثم سار معه إلى الحديقة..هناك كان الحاج (محمد) كان فى مواجهته....

"خلاص هتمشى يا ريس"

"معلش يا حاج (محمد)..عندى مشاكل كبيرة فى المدينة لازم أخلصها..أنا بس حبيت أشوفكم وأقعد معاكم شوية..بس الحمد لله كله تمام..أنتوا عاملين الواجب وزيادة".

"بفضل توجيهاتك".

قالها باقتضاب من ثم صافحه (جمصان) وقال:

"ده العشم برضوه يا حاج (محمد)..دى بلدنا".

ثم أشار إلى د (عبد المنعم) وقال:

"أنا هسيب الخبرا معاكم شوية علشان تنسقوا وتظبطوا كل حاجة".

أومأ د (عبد المنعم) رأسه موافقا..هكذا هز الحاج (محمد) رأسه وقال:

"يأنسوا ويشرفوا".

هكذا غادر (جمصان) الدار إلى الساحة متجها إلى كائنه الأسطورى......

الجامعة.......

مكتب د (سراج) مستشار الاقتصاد......

كان هذا الأخير يفكر..جالسا على كرسيه وأمامه ساعى مكتبه وكان خائفا.....

"بص يا (أشرف) يا بنى..أنا عارف إنك كنت بتنقل أخبارى غصب عنك..مش هتقدر تقول لوزير الدفاع أو لرجالته لأ"

ثم نظر لساعيه الخائف فى صرامة واستدرك:

"كانوا بيدفعولك كام؟"

"يا باشا"

هدر صوته...

"أخلص"

"ميتين يا بيه".

"فى الشهر؟".

"تمام يا باشا"

مال عليه الرجل وقال ضاغطا على كلماته:

"أنا بقى هديك خمسميه..غير الفلوس بتاعتهم..بس تعمل حسابك..أنا اللى هأمليك تنقل أخبارى إزاى..فاهم يا (أشرف)؟"

"فاهم يا باشا".

هكذا تراجع الرجل إلى كرسيه ثم عبس بوجهه وقال:

"طب ياله غور من وشى هاتلى قهوة".

قالها وأشاح له بكفه أن انصرف..هكذا استطاع الفتى أن يأخذ أول أنفاسه منذ جاء..أسرع فى تناول الكوب الفارغ من سطح مكتب رئيسه ثم قال:

"أمرك يا بيه".

لحظة ثم انقشع الفتى تاركا هكذا د (سراج) وقد زفر حمم غضبه حتى كاد أن يحترق..تناول حقيبته وهو يغمغم غاضبا:

"مبقيش غير ساعى المكتب كمان".

***

مبنى المحافظة......

صباح اليوم التالى....

(جمصان) فى مكتبه..يتأمل بعض الأوراق حين دلف (ضاحى) إلى مكتبه مسرعا...

"حمد لله على السلامة يا ريس"

"الله يسلمك يا (ضاحى)".

"أمرك يا ريس"

نظر إليه (جمصان) فى حزم...

"مش دى تقارير عيونا اللى فى الجامعة برضوه".

"تمام يا ريس".

"مش ملاحظ حاجة؟"

"حاجة؟..زى أيه يا ريس؟"

"التقارير طول عمرها فيها الكويس والوحش.. وأحنا كنا بنقبل ده لأن الناس دول بشر وبنختار بناء على الأفضل..لكن أنا ملاحظ إن تقارير الأيام الأخيرة لبعض المسئولين اتحسنت فجأة..بعضهم بقى ملاك..مش بيغلط..دى كمان التقارير بقت عملة زى قصائد الشعر..واللى بيجى تسعة بقى بيجى ثمانية..وبيروح أربعة..ومش بيفطر حتى"

"مش فاهم قصد حضرتك"

"قصدى إن فى ناس تحب تقرا تقارير بالمنظر ده علشان تريح دماغها..لكن أنا مش من دول..لو صدقت الكلام ده أبقى عبيط".

ثم أشار لضاحى وقال حازما:

"شغل عيون جديدة يا (ضاحى)..وشوش ميتشكش فيها..طالبات..معيدين..أى حد..عيون على عيونا القديمة وعيون على الأساتذة..لازم أعرف مين اللى لسه معانا ومين اللى شغال خصوصى".

مط (ضاحى) شفتيه غير راض وقال:

"تمام يا ريس".

"نفذ يا (ضاحى)".

ثم أشار إليه فاستدار منصرفا..ثانية ثم أغلق (ضاحى) الباب خلفه وهو يضرب كفا بكف..هكذا وجد الدكتور (عبد المنعم) المشهد العجيب وهو يتجاوز (ضاحى) الذى بدا وكأنه لم يره..ثم نسى هذا كله وطرق على مكتب رئيسه....

"أتفضل".

دلف د (عبد المنعم) إلى الداخل فقام (جمصان) يستقبله فى حماس..قال له من بين مصافحته:

"حمد لله على السلامة يا (عبد المنعم)".

"الله يسلمك يا ريس..اطمن حضرتك..الشغل اللى اتعمل ليومين اللى فاتوا هيفتح نفسك".

"على خيرة الله".

"حضرتك بلغتنى أكون موجود معاك دلوقت للضرورة".

"فى الواقع إحنا فى انتظار ضيف من أحد البلاد العربية".

"دولة عربية؟"

قالها د (عبد المنعم) متعجبا...

"متستغربش".

ثم ضغط زر مكتبه....

"المندوب يتفضل".

"أمرك يا فندم".

هكذا تعالى صوت الأقدام المقبلة قبل أن ينفتح الباب ويطل من خلفه وجه أسمر بادى النعمة..ابتسم (جمصان) ثم تقدم ومد يده يصافح الضيف......

"أهلا بك يا فخامة الرئيس".

"أهلا بك أستاذ (على)".

ثم أشار له بالجلوس فجلس واتخذ لنفسه مقعدا بجواره...

"زيارة كريمة أستاذ (على)".

"أنت الأكرم سيدى..والله أنا لا أحب أن أطيل عليك..فقط أتقدم بتحية حكومتى لسيادتك وتهنئتهم لما وصلتم له من إنجازات فى بلدكم..فى الواقع أنا لا احمل لك تحيتى فقط ولكن تحية عدد كبير من الدول العربية التى تتفق مع دولتى فى دعمها لكم".

"شئ يسعدنى".

"وباختصار ندعو حضرتك لزيارة دولتى لبحث سبل تدعيم العلاقات كما أقدم لك دعوة باسم عدد كبير من الدول العربية كى تتقدم بدعوة للانضمام لجامعة الدول ".

"أفندم؟"

قالها (جمصان) متعجبا فى حين رفع د (عبد المنعم) حاجبيه و لم يرد....

"جامعة الدول سيادة الرئيس..سوف يكون ذلك أكبر دليل على تواجدك الدولى والاعتراف بكيانك فى المنطقة..وسوف ندعمك جميعا حتى تحصل على هذا الحق الأصيل".

سأله (جمصان) فى برود:

"وحضرتكم هتدعمونى ليه؟"

"لأنه حقك الأصيل أن تكون وسطنا..كما أننا نسعد بتحالفك معنا".

"ممم"

قالها ثم استدار لدكتور (عبد المنعم):

"اجتماع الحزب أمتى يا (عبد المنعم)؟".

"دلوقت سيادتك..وزمان الناس موجودين فى مقر الحزب من ساعة..وكمان المواطنين اللى عايزين يتبعوا الاجتماع".

"عظيم..علشان منضيعش وقت الأستاذ (على)"

ثم استدار للأستاذ (على) وقال:

"بص يا أستاذ (على)..أمريكا بالفعل طلبت منى الإنضمام للأمم المتحدة..وده هيحصل قريب..هو ده الوجود الدولى بالنسبة ليا..بالنسبة لموضوع جامعة الدول ده فأنا متشكر..أنا مش عايز أبقى جزء منكم..إيه اللى يخلينى أضيع وقتى ومجهودى وفلوسى وأحط نفسى فى مواقف سياسية تضعف من هيبتى الدولية لما أنغمس فى قضياكم وصراعتكم وتكتلتكم الخيبانة دى..حتى الاقتصاد..كلكم دول مبنية على اقتصاد النشاط الواحد واقتصاديات الثروات..بترول..سياحة وخلافه..مش هستفيد منكم كتير..اعتقد إن وقتى وجهدى شعبى أولى بيه..أنا مش مستعد أضيع طاقاتى فى قضايا مش بتنتهى..بصراحة أستاذ (على) أنتم الطرف الأضعف..وده وضع مش منتظر أنه يتغير".

نهض المندوب غاضبا..وجهه محتقن كالجحيم.....

"سيادة الرئيس..أنت بهذا الشكل تتنصل من عروبتك..تذكر أن عدونا واحد".

"مفيش علاقة أستاذ (على) بين العروبة وبين المؤسسات العربية. "العروبة دى مشاعر شعوب صعب تترجم على مستوى

مؤسسات الحكم..بالعكس أحيانا مؤسسات الحكم بتتعمد أنها تتلاعب بمشاعر شعوبها للحصول على مكاسب سياسية معينة..يعنى أنا مش لازم أكون معاكم علشان أكون عربى..أما عدونا الواحد ده فمعتقدش إنكم بتمثلوا ليه أى مشكلة..اعتقد إن اللى أنا بعمله أخطر من اللى أنتوا بتعملوه".

كاد المندوب أن يرد منفعلا لكن (جمصان) أشار له رافعا حاجبيه:

"أما قصة زيارة بلدكم علشان التنسيق..فده موضوع تانى..اعتقد إنى هأخده بجدية".

هكذا اكتفى المندوب بنظرة دهشة..و لم يرد.....

***

القرية....

دوار العمدة....

نفس اليوم.....

الحاج (محمد) جالسا بين جمع الوزراء..كان متوترا بينما الأصوات تتعالى هنا وهناك..فقط بقى الغريب مكتوما عاقدا حاجبيه فى طرف الغرفة..و لم يتكلم على الإطلاق....

"يا رجالة أهدوا..شويه هدوء..الموضوع مش مستاهل كل ده".

يتكلم (أبو الليل) منفعلا...

"مش مستاهل أيه بس؟..يا راجل دا كان ماشى بالخبرا بتوعه دول رايح جاى ومش مستعبر حد فينا..وكان مقّعدهم جانبه بمناسبة ومن غير مناسبة".

"يا جماعة الموضوع مش كده..دول مهما كان ضيوف وهو عايز يرسمنا قدامهم".

"يرسم ميييين؟..يرسم ميييييين؟"

أمسك (أبوهاشم) يد (عمرو) وقال فى محاولة للتظاهر بالهدوء:

"يا حاج (محمد) بالعقل كده..دا كان بيحاول يلمعهم ويرسمهم قدام البلد..مين دول؟..كلام (ضاحى) إنه مش بيفارقهم لا ليل ولا نهار".

"قصدكم أيه؟"

"قصدنا إننا خلاص بقينا كارت محروق..كلها أيام وهتلاقى الجماعة دول هما اللى مسكوا البلد..مش بعيد يجيبهم بدلنا..ويمكن كمان يرمينا فى السجن..أصلنا خلاص مبقيناش عاجبين".

تنهد الحاج (محمد)..لم يكن يقدر على اعتراض أفكارهم..كانت منطقية..ربما دارت بذهنه قبل أذهانهم كذلك..أفكار كثيرة دارت بعقله لكنه قرر أن يكون حازما...

"يا رجالة دا وز شيطان عايز يهدم كل اللى عملناه..ودا كلام جديد علينا..ومحبش أسمعه تانى..أنتوا اللى عقولكم ضربت من ساعة ما شوفتوا الطيارة والحشية والبدل".

"مش كلام ده يا حاج محمد"

"ولا كلامكم ده كلام..ولحد كده كفاية".

ثم تركهم وانصرف إلى غرفته لينهى الحديث.. لم يكن يتحمل المزيد..كذلك هم لذا لم يستوقفه أحد...

تبادل الجالسون النظرات..ثم همس (أبو الليل):

"أنا مش عارف الحاج (محمد) بيأوح ليه؟"

نظر إليهم الغريب بنظرة باردة..وتكلم ربما لأول مرة:

"الحاج (محمد) عارف كلامكم..يمكن أكثر منكم..لكنه مش عايز يكون سبب الخراب..عايز يوزن الأمور لآخر لحظة".

"معدش فيها لحظات..معدش فيييييها لحظاااااات".

"أهدا يا (عمرو) يا بنى".

ثم يقول (أبو هاشم):

"من حقنا إننا نضمن حقنا..الوضع ما بقاش يطمن".

"دا الكلام المظبوط..دلوقت الأشيا معدن والحمد لله والفلوس كثير..وأحنا لازم نأمن مستقبلنا".

"ونأمن ليه؟..أحنا مش هنقدر على واحد ولا أيه؟؟؟"

قالها (عمرو) فرد أبوه:

"اللعبة دى مش مضمونة..(جمصان) بقى قوى..أقوى مما تتصوروا..أحنا مش محتاجين نخاطر ولا نعمل شوشرة..أحنا بس هنحاول ناخد نصبنا من الليلة ونحفظ حقنا فى البلد..كفاية إن واحد زي أنا ملوش فيها حتة الأرض لحد دلوقت..الواحد فعلا أتلهى".

تراجع الغريب بظهره من جديد..لم يعقب..فقط دار بخاطره أن ا قام به منذ شهور قد بدأ أخيرا يصل إلى أذهان أقرانه...

صمت مجددا...

***

مبنى المحافظة.....

(جمصان) جالسا خلف مكتبه وأمامه من جديد شاب يرتجف..أشار له أن أجلس فجلس الأخير بعد عناء...

"أنا مبسوط منك يا ابنى"

"ربنا يخليك يا ريس"

كان هذا الشاب هو رئيس تحرير جريدة صوت شؤلاط......

يتحدث الشاب:

"يا فندم أنا شديد الحماس لسيادتك وللنظام الجديد..أخيرا لفساد والمحسوبية والرشوة لقت فارس يتصدلها..يا فندم حضرتك بطل..بطل".

ابتسم (جمصان) ابتسامة ساخرة..كلمات نمطية لكنها — على لرغم من ذلك — تدغدغ مشاعره......

"أشكرك..أنا مبسوط من حالة الحرية اللى أنت عملتها فى جورنالك..تغطية المظاهرات وانتقادات الشعب وتغطية أخبار الأحزاب..ده شئ مميز".

"يا فندم دى أوامر حضرتك..دى الحرية اللى عمرنا ما كنا نتخيل تبقى هنا..دا أحنا فشر أمريكا".

ندت من جمصان ضحكة صغيرة لم يتملكها....

"بص يا ابنى"

انحنى الصحفى على الفور.....

"أوامرك يا ريس".

"عايزك تغطى الزيارة الأخيرة اللى أنا قمت بيها..وأيه اللى تم بالظبط"

"وطبعا يا ريس نشيد بالإنجازات اللى حضرتك بتحققها".

ابتسم (جمصان) و لم يعقب..قال:

"عايزك كمان تنشر عن مباحثات بينا وبين أمريكا..وإنها أسفرت عن معاهدات اقتصادية جديدة..بعدها بأسبوع هتنشر عن اتصال هاتفى بينى وبين الريس الأمريكى بنعبر فيه عن استيناءنا من المواقف الأمريكية فى المنطقة..كمان هتنشر دعم للموقف العربى..أخيرا عايزك تنشر عن الأحزاب ونشاطتها وتعمل لقاءات مع رؤساء الأحزاب..يقولوا اللى هما عايزينه"

"الله عليك يا ريس".

"يا الله يا بنى روح أنت".

انصرف الصحفى فى حين استدار جمصان بكرسيه لهاتفه..أسرح يجرى مكالمة...

"أيوه يا (زكى)".

صوت على الهاتف ثم....

"رجالتك تمام"

أجابة مقتضبة ثم.....

"خلاص..عايز أعرف أخبار كويسة..عايز التقارير من النهاردة (زكى)".

كلمة ثم....

"ياله..شوف شغلك".

ثم أغلق هاتفه ودار بكرسيه مجددا وقد انتابه شعور بالرضا......

***

القيادة الأمريكية

الصوت الصارم فى الهاتف:

"أوامرك سيادة الرئيس"

"أداء جمصان ده أكثر من متميز..دا أنا أحيانا بشك فيه..كأنه مدرب من سنين".

"إحنا متابعين الموقف يا فخامة الريس..وأعتقد إنه أداء جمصان متوافق مع أفكارنا".

"المعونات وصلت".

"وصلت يا فندم..وبيتم تجهيز شحنات الأسلحة".

"أعتقد إننا عملنا الجزء الخاص بينا..الدور عليه..بعد ما توصل له صفقة الأسلحة هيكون ده الوقت المناسب علشان نفعل دوره معانا كحليف لينا فى المنطقة".

"أوامرك يا فندم".

"نفذ".

تيت..تيت..تيت

***

قاعة مجلس الوزراء....

رئيس الوزراء على قمة الطاولة..كان العجز قد غطى ملامحه وبدا صوته باهتا على غير العادة......

"اعتقد يا جماعة إن الموضوع بقى مسألة وقت..الرئيس بيحملنا مسئولية التخاذل فى التعامل مع الموقف من البداية..وأعتقد إنه معاه حق..زى ما قلتلكم الموضوع مسألة وقت وكلنا هنرجع لعيالنا".

صمت مطبق....

"فى الواقع أنا حاولت إنى أجمل أداء المجلس أمام الرئيس فى الأيام الأخيرة..حاولت أوصله محاولاتنا المستميتة للسيطرة على الوضع فى شولاط وجمع أكبر قدر من المعلومات عن اللى ورا العملية دى..مش بس كده..أنا حاولت أعرض عليه مجهوداتكم فى التطوير والتحديث وحل مشاكل الوطن..وأزاى إنكم مكنتوش بتناموا علشان تحسنوا أداء الوزارة".

صمت مطبق....

"لكن قدر الله وما شاء فعل..إحنا هنؤدى واجبنا لأخر لحظة ولحد مايصدر القرار..وكل واحدة بعدها يرجع لحياته".

ثم رفع رأسه إلى الجمع وقال:

"أول موضوع بجدول الأعمال"....

***

مبنى المحافظة.....

(جمصان) يراجع بعض الأوراق..بينما الدكتور (عبد المنعم) ظهر على فرجة الباب.....

"اتفضل يا (عبد المنعم)".

"خير يا ريس".

التقط (جمصان) الأوراق وناولها ل(عبد المنعم).....

"شايف يا سيدى..دى أخر أخبار البلد..المصدر هو (زكى) والعيون الجديدة اللى واضح إنها كانت فعلا ضرورية..الوزرا خايفين منكم يا (عبد المنعم)..طبعا هما عارفين قدراتهم كويس وعارفين إن وجودكم أهم من وجودهم..أخيرا فكروا صح وحسوا إنى ناوى الاعتماد عليكم فى المستقبل..علشان كده بدأ عدد منهم فى السمسرة والتسليك علشان يأمن مستقبله..أما الباقيين فبيحولوا يفرضوا نفوذهم ويدوا الإحساس للناس إنهم الكل فى الكل..الحقيقة إن الحاج (محمد) لسه أيديه بيضاء وذمته نضيفة وده اللى محافظ على حب الناس له".

"أسمحلى يا ريس دا مش دايما وحش..دا بيخليك قدام شعبك رمز العدل والخير وبيخلى تدخلاتك فى الوقت المناسب هى نجدة للناس..زى ما عملت فى الزيارة اللى فاتت..اللى بيعملوه ده بيخسرهم علاقتهم بشعبهم وده هيخلى الناس تتعلق بيك أكثر".

"وأخرة دا أيه؟..مهما ظهرت فى دور المنقذ اللعبة دة مش ممكن تستمر..دى حاجة الواحد بيحتاجها من وقت للتانى..لكن الناس

دى بتشوه الصورة اللى بحاول أرسمها للثورة..وغباءهم بيخسرنى كثير..غير إن ردود أفعالهم غير متوقعة".

مالْ د (عبد المنعم) عليه وهمس:

"والحل؟..ناوى تقلب عليهم؟"

هز (جمصان) رأسه فى حزم..

"صعب..أنا ممكن أكون فى المطلق أقوى منهم..لكن الناس دى ليها أهل وعزوة فى البلد..بعضهم كمان لسه محبوب زى الحاج (محمد)..لو عملت كده هأخسر ناس كثير..كمان هأولع حرب داخلية مش وقتها دلوقت..حالة من عدم الاستقرار أنا مش محتاجها".

"يعنى ناوى على أيه؟"

"إنك تتطمن على الجيش والأسلحة اللى وصلت..على الرجالة بتوعنا اللى بيتدربوا..محدش عارف الظروف".

"تمام".

فكر (جمصان) لبرهة ثم قال:

"وعايزك فى السر كده تبعت حد يجيب أخويا من البلد".

"أخوك؟..أنت عندك أخ".

"خمستاشر سنة..مش كثير يعرفوا عنه حاجة..أنا فضلت إنى أبعده عن العيون من ساعة الثورة..أنا هأديك عنوانه".

"طيب وأنت هتجيبه ليه؟"

حدق فيه (جمصان) بصرامة فخرس د (عبد المنعم).....

"علشان أبعده عن الأحداث دى.."

"أمرك يا ريس".

قرر ألا يجادله..هكذا قال (جمصان) لكنه كان يعلم بأن هذا لم يكن إطلاقا ما يرمى إليه.....

كان شعوره بأن رجاله يتساقطون لأسباب عدة قد أورثه الشعور بعدم الأمان.....

هكذا لامس كفه مسندى كرسيه بلا إرادة......

***

القرية......

الحاج (محمد) يسير فى بطء..يتفقد الأحوال فى القرية..الناس تهلل فى حماس والدعوات تترامى عليه فى حين بدا هو على غير العادة غائصا فى الشرود..بجواره (أبو هاشم) وكان عابسا أيضا على غير عادته.....

"ده موضوع خطير يا حاج (محمد)".

"يا (أبو هاشم) أنا زيكم مش عاجبنى اللى بيحصل..لكن أنا بحاول لآخر لحظة إنى مابوظش اللى بانيناه..إحنا برضوه فى الهوا سوا والخطر علينا واحد..لكن توصل إنى ألاقى الواد (زكريا) تربيتى بيتجسس عليا أول أمبارح..وأعرف فى الآخر إن الأخبار دى بتطير على (جمصان) فى البندر..دا يبقى كتير".

"الواد ده زودها أوى"

"ومع ذلك أنا مقولتش لحد الكلام ده..قولتلك أنت بس لما خلاص فاض بيا..لأنى عارف إنى لو قلت لباقى الجماعة مش بعيد يجيبوا عليها وطيها".

"خلاص يا حاج (محمد)..يبقى كفاية عليه لحد كده".

"يعنى أيه؟"

"يعنى نشوف حد تانى يمسك البلد دى".

هز الحاج (محمد) رأسه وقال:

"(جمصان) مش سهل يا (أبو هاشم)..وواضح إن الفترة اللى قعدها فى البندر قوت شوكته..ده وصل لحد أمريكا..(جمصان) شرخ وسبنا إحنا هنا مغروزين فى الأرض..أحنا مش عايزين نعمل حاجة البلد كلها تدفع تمنها".

"طب والعمل؟"

تنهد الحاج (محمد) وقال:

"ربنا يهدى"

ثم استدرك مغيرا الحديث:

"المهم بينا على المؤتمر الشعبى..عايزين نطمن الناس على المشاريع".

نظر إليه (أبو هاشم) و لم يجد ما يقال..ضرب كفا بكف ثم سار معه مغادرين الطريق......

***

-١٦-

مبنى المحافظة....

قاعة المؤتمرات....

غادر (جمصان) مرهقا وبجواره غادر (ضاحى) و(عبد المنعم) باب القاعة..وخلفهم بدأت حلل رجال الجيش فى الظهور متجهة نحو باب الخروج......

"واضح يا ريس إن متبعتك لأحوال الجيش من خلال عيونا وكمان صفقات الأسلحة اللى جاية خلتهم يصولك بصة تانية خالص..كمان شعورهم إن الكيان الأمريكى بيدعم الجيش يخليهم يفكروا ألف مرة قبل ما حد يلعب بذيله".

"كمان حركة الترقيات يا (عبد المنعم)..شعورهم بالعدل لما حسوا إنهم فعلا بيتكفأوا بحسب الأداء..كمان المكافأت المالية..كل ده بيحكم السيطرة عليهم أكثر".

" بالظبط يا فندم".

"بس برضوا..ظباط الحكومة القديمة لازم تكون الرقابة عليهم أربعة وعشرين ساعة..على الأقل لحد ما رجلتنا تشد حيلها".

ثم استدار إلى د (عبد المنعم) وقال:

"بلغ الأحزاب إننا هنعمل انتخابات الشهر الجاى"

"انتخابات؟"

"انتخابات مجلس الأمة الجديد..وبلغهم كمان إن أعضاء مجلس الأمة المنتخبين هيكون ليهم دور فى اختيار مجلس الوزراء الجديد اللى هيعلن بعد نتيجة الانتخابات مباشرة".

برقت عيناى د (عبد المنعم)....

"أمرك يا فندم".

"مجلس وزرا يا ريس؟"

قالها (ضاحى) متعجبا فقال (جمصان) وكأنما تذكره:

"دى إجراءات شكلية يا (ضاحى)..لازم مجلس الوزراء يتعين بعد الانتخابات..العالم كله بيعمل كده!!!"

ثم وقف (جمصان) فوقفوا معه..استدار ل(ضاحى) وقال بجدية:

"بالمناسبة دى عايزك تسافر البلد اليومين دول علشان تختارلنا كام واحد يكونوا مناسبين للترشح باسم الحزب فى دايرة البلد.".

عقد (ضاحى) حاجبيه غير فاهم..لم يبدو مرتاحا لكنه أجاب:

"أمرك يا ريس".

دار الدكتور (عبد المنعم) ببصره بين (جمصان) ورجله لوهلة..لكنه لم يعلق.....

***

القرية....

دوار العمدة...

"انتخابات؟"

قالها الحاج (محمد) وقبضته كالأفعى تعتصر الهاتف..كان (أبو الليل) على الطرف الآخر....

"زى ما بقولك يا حاج (محمد)..(ضاحى) قلى إنه هيعمل انتخابات زى انتخابات مجلس الشعب..بعدها هيعين الوزرا".

"يعين وزرا؟"

"هو قال لضاحى إن ده إجراء عادى..يعنى لازم يتعمل بعد الانتخابات".

صمت الحاج (محمد) وشعور بالغيظ الممتزج بالعجز يكتنفه....

"وموضوع الانتخابات ده محدش خد بيه خبر ليه يعنى؟"

"يا حاج (محمد) أنا الفار بيلعب فى عبى".

لم يستطع أن يتحدث..على الطرف الآخر كان (أبو الليل) ممسكا بهاتفه حين دخل عليه الغريب....

"كويس إنك وصلت يا كبير..إلحقنا..(جمصان) شكله هيلعب بديله".

كان الغريب قد تقدم داخل دار (أبو الليل) حين هتف الأخير به.. لم يبد عليه أى انفعال..فقط جلس ووضع قدم على الآخر....

"بتكلم مين؟"

"الحاج (محمد) يا ريس".

هز الغريب رأسه...

"مفيش داعى لكل ده يا (أبو الليل)..يا خبر النهاردة بفلوس..وخليك ورا الكداب..لو فكر يلعب بديله إحنا برضوا لسه بعافيتنا..ساعتها مش هنخاف على حاجة".

نظر (أبو الليل) له متعجبا فى حين استرخى الأول على كرسيه..لم يكن أحد يعلم بمجمل المكالمة التى هاتفه بها (جمصان) أمس..كان قد طمأنه بنفسه على بقاء منصبه تحت أى ظرف..هكذا وجد الغريب أن يثق ب(جمصان) لمرة أخيرة..كان (جمصان) مقنعا......

هكذا ظل (أبو الليل) يحدق فيه لكنه لم يجرأ على الكلام....

***

مبنى المحافظة...

(جمصان) وأمامه عدد من المستشارين..كان قد أنهى مكالمته مع الغريب لتوه وكان راضيا....

"أنا عارف إن فيه فرق كبير بين التعامل مع أهل قرية صغيرة زى اللى أنا بدأت منها وبين التعامل مع سكان المدينة..فكرة المشاريع والأراضى كانت كافية جدا لإرضاء أهل القرى لكن مش كافية لإرضاء أهل المدينة..دا اللى أنا استشفيته من متابعتى لأخبار البلد".

"ممكن توضيح أكثر سعادتك".

"يعنى أفكارى اللى أن بدأت بيها واللى أنتوا طورتوها بخصوص الملكية والأراضى وتحقيق مشاريع وطنية واللى بدأت فى بلدنا وبعدها بدأ تنفيذها فى كل القرى والمراكز حتى تم تطبيقها هنا فى

لمحافظة حققت مردود طيب..لكنه مش كفاية علشان أهل المدينة رضوا عن النظام".

"المطلوب معاليك؟"

"أنا طلبت دعم مادى أمريكى علشان دعم البناء فى لمحافظة..شعب المدينة بطبيعته مادى يحب يشوف ويحس ويترفه..علشان كده أنا عايز منكم مجموعة من الأفكار والمشاريع تطوير المحافظة..مؤتمرات..حفلات..أنشطة ثقافية..مولات تجارية..تحسين الشوارع وخلافه..إبهار..أنا عايز أهل المدينة يحثوا نهم فى أوروبا..وأهم من كده إن ده يتم بسرعة..التغيير لازم يكون بسرعة قبل ما الناس تتعود عليه".

"مفهوم يا ريس".

ابتسم (جمصان) ثم دار بكرسيه تجاه النافذة مفكرا فصمت لجميع..ثوان ثم استدار إليهم ثانية وقال:

"عايز كل واحد من السادة المستشارين يجهزلى خطة عمل مقترحة فى تخصصه للخمس سنين القادمة..فى حالة توليه الوزارة".

سادت حالة من الانتعاش وهمهمات الرجال تتبعثر هنا وهناك..ابتسم جمصان على الرغم منه لبرهة ثم ابتلع ابتسامته وقال:

"الموضوع التالى".

***

فيما بعد ذكرت التقارير الأمنية أن حالة من الرضا قد انتابت الناس حين وعد (جمصان) بالالتفات إلى المدينة..ثم حالة من الثقة حين بدأ التنفيذ بالفعل......

تماما كما أراد (جمصان)..استغرق التنفيذ أسابيع محدودة لكنه كان مرضيا.....

***

المحافظة...

مترل (عابد) رئيس حزب التيار الديني......

كان الأخير قد غادر سيارته عائدا من مقر الحزب..كان مرهقا فقرر ألا يذهب هذا اليوم إلى مكتبه الهندسي..قرر أن يعود إلى المترل مباشرة...

فتح بابه..ثم مر وأدار يده كي يغلق الباب..ذلك حين أجفل وتراجع للوراء.....

كان هناك شبح فارع الطول يسد الباب......

"أنت مين؟"

"اتفضل الأول بعد إذنك..مش مستحب حد يشوفنا مع بعض".

توجس (عابد) خيفة..لكنه سمح له بالدخول....

"أنا (جاك ستوكر)..مندوب من السفارة الأمريكية".

"السفارة الأمريكية؟..والسفارة هتعوز مني أيه إن شاء الله؟"

"أستاذ (عابد)..أنا مش هتفضل؟".

أشار له (عابد) بالجلوس..وهكذا فعل هو....

"أستاذ (عابد)..أنا مش هطول عليك..حزبك واحد من أنشط الأحزاب فى البلد..وطموحه كبير..تقريبا هو الحزب الوحيد اللى بينافس".

"شكرا"

"دى حقيقة..أمريكا بتدعم الحريات فى كل دول العالم الثالث..خاصة إن حدود الديموقراطية فى الدول دى بتبقى صارمة جدا..أيه هى فرصة التنافس لما الحكومة يكون معاها المال والسلطة التنفيذية..وحتى الحزبية".

"بس أحنا فى أول الطريقة".

ابتسم جاك.....

"علشان عملتوا حزب؟..يا راجل دى خطوة أتأخرت كثير..مش كفاية أستاذ (عابد)..إحنا كدولة داعمة للحريات هندعم حزبك ماديا وسياسيا إذا أحتاج الأمر".

قال (عابد) فى حذر:

"كنت فاكر إن علاقتكم بالرئيس...."

"دى حاجة ودى حاجة أستاذ (عابد)..إحنا دعمنا رئيسكم بعد سياسة الإصلاح اللى قام بيها..كان يستحق..ودلوقت بندعمكم علشان ندعم الديموقراطية فى بلدكم الوليد..علشان تتأسسوا كدولة حرة متوازنة..مفيش تناقض".

"وإشمعنا أحنا؟"

هز جاك رأسه....

"زى ما قلت..أنتم الأكثر شعبية والأقرب لفكرة الحزب..فكر أستاذ (عابد)..الموضوع هيكون نقلة بالنسبة لكم".

ثم قام واقفا ليعلن انصرافه..لم يستطع (عابد) أن يتبعه..كان صامتا وتعبير عام من الإستياء يشمله..لكنه اكتفى مؤقتا بالصمت...

"هكلمك تانى".

قالها الشبح الأسود ثم اختفى مجددا....

***

القيادة الأمريكية

صوت من الهاتف:

"بعض الأحزاب وافق..البعض رفض والبعض لسه بيفكر يا فندم".

"مش مهم..هيوفقوا..ده بس رفض حذر مش أكثر".

"هنستمر فى المحاولة يا فندم".

"وأخبار المستشارين أيه؟"

"شرحه يا فندم..وهنستمر أيضا فى المحاولة".

"نفذ".

تيت..تيت..تيت

***

أمام مبنى المحافظة....

يتحرك (جمصان) مغادرا سيارته..تتوقف خلفه سيارة أخرى ثم يغادرها عدد من المستشارين....

كانَ د (عبد المنعم) فى انتظارهْ أمام البوابة..هكذاً أشار لمستشاريه أن يمكنهم الانتظار.....

"جولة موفقة يا فندم".

يجيبه (جمصان) وهو يسير نشطا فى اتجاه مكتبه....

"فوق ما كنت أتصور..البلد بتتغير فعلا يا (عبد المنعم)..والناس مبسوطة..أنا كمان أحب الناس تشوفنى كثير..مش لازم أكون شخصية خيالية بالنسبة لهم".

"تمام يا ريس".

"قولى..(ضاحى) سافر؟"

"سافر يا ريس".

"عظيم".

كان قد وصل إلى مكتبه.....

"تعالى يا (عبد المنعم)..عايزك فى موضوع".

"خير يا ريس".

جلس (جمصان) ثم أشار للدكتور (عبد المنعم) فى عجلة فجلس:

"أنا غلبت..كل ما أفرح بخطوة يجى شوية الدراويش دول ينكدوا عليا..التقارير اللى جاية من البلد زى الزفت..النهب بدأ يشتغل والوزرا فجروا..فلوس المشاريع بتتسلك والناس بدأت تحس بده وتفقد الثقة..كل اللى عملته بيتهدم".

"كل كرسى يا ريس بيجى بالحاشية بتاعته..شروة واحدة..ده حال السياسة".

"شعورهم بإنى بدأت استاء من عقولهم الضعيفة وحبرهم المعدومة وجهلهم اللى بقى خطر عليهم وعلى البلد خلاهم يحسوا إنى قربت أتخلص منهم..كله بيقول ياله نفسى".

"والحال؟"

"أنا بين نارين..نار إنى أسبهم يخربوا كل حاجة ويضيعوا الثقة اللى حاربت علشان أوجدها..أو أتخلص منهم وساعتها هتكون حرب..الناس مش هتثق فينا فى الحالتين".

"واخترت أيه يا ريس؟"

صمت (جمصان) طويلا..هكذا كتم د (عبد المنعم) أنفاسه..لحظات ثم قال:

"بص يا (عبد المنعم)..أبعت للصحفى أياه قوله إنى عايز أخبار بالجملة عن فساد الوزرا..بالتدريج علشان ما تلفتش النظر..وتبان كأنها أراء حرة نابعة من أحزاب المعارضة وإن إحنا بننشرها بحيادية تامة..الناس إتعودت على ده ومش هتستغربه..الأهم..عايزك توصل أكبر كمية من المستندات اللى تثبت فساد الوزرا لرؤساء الأحزاب الأخرى ومن غير ما يحسوا إننا وراها..برضوا الأحزاب دى ليها صوت وجرايد..جاه الوقت علشان نستفيد منهم شوية".

"تمام معاليك".

"وأطلبلى مستشار الدفاع وقادة الجيش..عايزهم حالا".

لمعت عيناى د (عبد المنعم) ببريق اشتياق....

"كده هتكون حرب تطهير بيحركها الجماهير وبتطالب بيها حزاب المعارضة يا (عبد المنعم)..إحنا لازم ننصاع".

هتف د (عبد المنعم) فى حماس:

"أمرك يا ريس".

"نفذ!!".

***

ناد بالمدينة....

جلسة تحوى ثلاثة من الشباب....

كان أولهم يرتشف سيجارته..ينفث دخانه فى الفراغ ثم يستدير زميليه ويقول:

"بس والله الراجل اللى اسمه (جمصان) ده جامد فحت..قلبه ميت..طايح".

رد عليه شاب ثان وهو يحتسى مشروب ما:

"يا عم جامد أيه بس..دا ريس جالنا بالبرشوت من ورا الجاموسة..دا عميل أمريكانى..أمريكا هى اللى خططت ونفذت..ولاد الأيه لعبوها صح".

يرد ثالث:

"عميل أيه بس يا عم (أحمد)؟..هى أمريكا هتخلى الإسلاميين يعملوا حزب..فيه فرق بين إن أمريكا تبقى حليف وأنها تكون هى اللى وراك من الأول".

يقول الأول:

"برضوا جامد..مبيخفش..وبصراحة عمل شغل شديد فى البلد".

يّرد الثانى:

"ده أكبر دليل..جاب الفلوس دى منين؟..يا بنى أمريكا هى اللى وقفته على رجليه".

يقول الثالث:

"أمريكا مش أمريكا المهم إنه فعلا عمل فرق..كفاية إنه خلى جرايد الحكومة تتصدق وتتباع أكتر من المعارضة..عمرك شوفت جرنال حكومى بينتقد وزرا؟..افتح وشوف كاتبين أيه النهاردة؟"

يرد الثانى فى حزم:

"اللعب على الديموقراطية دى حركات أمريكانى محفوظة..إيه اللى عرف الفلاح ده بالديموقراطية والأحزاب؟"

"يا سيدى مش فارقة..أمريكا موجودة موجودة..المهم إن الدنيا دلوقت فلة..شوف يا عم المشاريع والشوارع..دا أنا احتمال الأقى شغل قريب".

ثم يقول الأول:

"بقولكوا جامد..جامد".

***

مبنى المحافظة....

(جمصان) وقد جلس ووجهه لمكتبه..الصوت من خلفه يقول:

"أخو حضرتك وصل بالسلامة يا فندم".

أخذ (جمصان) نفسا عميقا ثم قال:

"وهو فين دلوقت؟"

"ارتاح فى البيت يا فندم..حضرتك كنت فى اجتماعك مع الجيش ففضلت إنه يرتاح لحد ما حضرتك تنتهى من الاجتماع".

"على خيرة الله".

كان ذهنه مشتتا بلقائه برجال الجيش..كان يفكر ربما للمرة الألف فى هذه الخطوة المصيرية..تذكر الحاج (محمد) لكنه تذكر شعبيته المفرطة فى الكفة المقابلة..لم يكن من الممكن أن توزع لسلطة على اثنين..فكر فى أخيه لحظة..ثم استرخى على كرسيه من جديد.....

كانت الصحف تفترش مكتبه وكانت أخبار الوزراء مبعثرة فى كل صوب..فساد..نهب..رشاوى..ماض ملوث..التقارير الأمنية تؤكد بدء الاحساس العام بالاستياء تجاه الأداء الوزارى..المطالبة بالتدخل الرئاسى..أسبوعان من المطالبة الملحة بالتدخل.....

كان هذا — فى وجهة نظره — هو الوقت المناسب.....

***

-١٧-

القرية.....

منزل الغريب.....

"بعت خد أخوه؟"

قالها الغريب مصدوما..أمامه كان (ضاحى) وكان غاضبا كالنار....

"وبعتنى من غير مناسبة على البلد..دا حتى مكلمنيش لحد دلوقت".

قام الغريب من مقعده وقال:

"كده بانت يا (ضاحى)..شكله ناوى على الغدر".

"والعمل؟".

"نجهز الرجالة..استعدوا..شكلها هتبقى حرب".

ساعتها اندفع جسد (أبو الليل) من خلال الباب....

"ألحق يا كبير...."

"فى أيه يا (أبو الليل)؟"

"عملها الواطى يا كبير..عزلنا وعين شوية العيال بتوعه وزرا".

انتفض ضاحى فى حين صاح الغريب:

"أنا كان قلبى حاسس".

ثم التفت إلى (ضاحى) وصاح:

"جهز الرجالة يا (ضاحى)..أحنا النهاردة يا قاتل يا مقتول".

تعالى الصياح فى كل مكان بينما رجال القرية يهربون فى كل اتجاه.....

يظهر رجال الشرطة من بعيد..ثم صوت إطلاق النار.....

***

مبنى المحافظة....

نفس اليوم..بعدها بدقائق.....

"زى ما توقعنا".

قالها د (عبد المنعم)..ثم أردف:

"حصلت مقاومة عنيفة أثناء محاولة نقل السلطة بصورة سليمة..الشرطة بتحاول تسيطر على الموقف بس واضح إنهم هيستمروا..وإنهم مسلحين كويس".

"للأسف..أنا كنت حابب - إكراما ليهم - إن نقل السلطة يكون بهدوء..مكنتش أحب ألجأ للعنف معاهم بس للأسف ده شبه مستحيل".

"يعنى؟"

"قوات الجيش على حدود البلد؟"

"من ساعات يا ريس"

قال (جمصان) فى حزم:

"خليهم يتحركوا".

كان وجهه قد صار لرجل فى الخمسين من عمره..كان الإرهاق بالفعل باديا عليه..لكنه لم يكن مترددا أبدا.....

"أوامرك يا ريس".

***

لم يستغرق الأمر طويلا......

لم يكن أحد من المخلوعين يتوقع..كان الجيش مستعدا وواثقا..كان سريعا كذلك..هكذا حدث كل شئ فى دقائق وانتهى وألسنة اللهب تحرق كل شئ..الناس مختبئة فى بيوتها ولا صوت على الإطلاق غير صوت فرقعة اللهب.....

ذكرت التقارير الأمنية فيما بعد أن كل من (ضاحى) و(أبو الليل) وابنه قد لقوا مصرعهم بينما اختفى الحاج (محمد) ومعه زوجته و(أبو هاشم).......

كان الذهول قد شمل كل شئ.....

الكل مختبئ فى بيته..خائف..وغير مصدق.....

لا أحد يفهم.....

صارت مدينة أشباح....

***

مبنى المحافظة.....

وقف (جمصان) كالصنم..يتأمل المدينة من النافذة وقد قتلته الأفكار..كان شاردا حتى أن د (عبد المنعم) ظل واقفا لفترة قبل أن يبادر بالحديث....

"الجرايد كلها بتشيد بثورة التصحيح اللى أنت قمت بيها يا ريس".

"والناس كلها فى البلد بقت بتكرهنى يا (عبد المنعم)".

"أمر كان لابد منه يا ريس..بكرة هتفرحهم وهينسوا كل حاجة..بيانك فى التلفزيون وصل للناس حقايق كثيرة مكنوش فاهمنها..أكيد هيعزروك".

ابتسم (جمصان) فى مرارة....

"السفير الأمريكى كلمنى النهاردة..بيقول إن أمريكا مش عاجبها إنى قمت بالتدخل العسكرى بدون علمها أو الرجوع ليها".

"مش فاهم..وده يزعلهم فى أيه يا ريس؟..أمريكا بتتعامل معاك أنت فى الأساس".

ضحك (جمصان) ضحكة مريرة وقال:

"ومعتقدش إنهم يعرفوا أساميهم حتى..يا (عبد المنعم)..يعنى هما مكنوش يعرفوا اللى إحنا بنخططله من قبل ما نفكر فيه حتى..أكيد عارفين من ساعة ما قلتلك اللى أنا ناوى عليه".

ابتلع (عبد المنعم) ريقه بصعوبة...

"وأنا عارف إن ده ميفرقش معاهم حاجة..دا بس وضع أسس للعلاقة المشتركة اللى بينا..منفكرش ومنقررش من غير منرجع ليهم..فى أيه حاجة مهما كانت تافه وبسيطة".

ثم استدار لدكتور (عبد المنعم) وقد تذكر أمرا:

"المهم يا (عبد المنعم)..فيه مندوب من السفارة الأمريكية هيوصل بكرة الصبح..أنا مش متأكد من سبب الزيارة..ممكن يكون

مجرد تباحث بخصوص نوايانا فى الفترة القادمة وممكن حاجة تانى..خليك فى استقباله لما نشوف أخرتها معاهم أيه".

"أمرك يا فندم"

***

مكتب رئيس مجلس الوزراء....

كان هذه الأخير متوترا..أمامه وزير الداخلية وكان فى حالة مماثلة.....

"يعنى فيه بارقة أمل؟"

"والله يا فندم التقارير الأمنية كلها بتقول إن الإطاحة بالوزرا تم بعملية عسكرية..البعض مات والبعض مفقود..فى النهاية البلد بقت خرابة..واضح إن فى حالة من الحرب الداخلية حصلت يا فندم".

"إحنا لازم نستغل ده".

"الوزرا اللى اتشالوا يا فندم ورجالتهم ليهم عزوة كبيرة فى القرية دى والقرى اللى جانبها..فيه حالة من الغضب على اللى اسمه (جمصان) ده..إحنا هنلعب على الوتر ده..إحنا ممكن منحتاجش عملية عسكرية مباشرة يا فندم..مجرد دعم العناصر دى بأسلحة وبعدد معقول من رجالتنا هيخليهم سلاح خطير على قيادة الانقلاب..الأهم كمان إن (جمصان) ضحى برجالته كلهم..مش باقى وراه غير الجيش..لو بعتنا حد من عملاءنا لشؤلاط ممكن يستميل عناصر الجيش دى خاصة إنهم كلهم فى الأصل رجالة جيشنا..يفهمهم إن الهجوم وشيك وإنه فى حالة التعاون هيتم

معاملتهم معاملة الأبطال..طبعا محدش هيرحمهم لو ثبت عليهم بعد كده تهمة الخيانة".

ابتلع رئيس الوزراء ريقه وقد شمله الحماس:

"المهم مفيش أى قوة أجنبية تحث بالموضوع ده..لازم تبان كعملية انتقام عادية..وأنا هكثف اتصالاتى السياسية مع أمريكا..ممكن نقدر نحيدها..الاحتياط برضوه واجب".

"ممتاز يا فندم".

"يا للا يا سيادة الوزير .. مستنى أيه؟"

هكذا انطلق وزير الداخلية..ثم توقف لحظة واستدار لرئيس الوزراء قائلا:

"بس خليك فاكر يا سيادة الوزير..احنا اللى حلناها مش لدفاع".

***

مبنى المحافظة.....

(جمصان) وأمامه المندوب الأمريكى..كذلك جلس د (عبد لمنعم) وعيناه تراقبان الجلسة فى قلق.....

"أنا كنت متصور مستر جيمس إنك جاى تكلمنى عن الخطوة للى أنتوا بتقولوا إنى عملتها من غير علمكم".

"لا فخامة الرئيس..دا موضوع تنقشه جنابك مع رؤسائى لكن نا مكلف بعرض ملف واحد على فخامتك..دا اللى أنا مكلف بيه".

"ملف..ملف ايه؟"

اعتدل المندوب قائلا:

"طبعا فخامتك معندكش شك إنّ أمريكا حليف قوى ليكم..وإنها بالفعل قدمت ليكم الكثير من المساعدات الاقتصادية والسياسية وكذلك العسكرية".

رد (جمصان) فى حذر:

"أكيد"

"ونظرا للاضطرابات اللى تعانى منها بلادكم مؤخرا وكتأكيد لقوة العلاقة معكم إحنا بنعرض عليكم تدعيم العلاقات العسكرية بصورة أقوى..وتحقيق أكبر قدر من الحماية لكيانكم الناشئ".

تسأل د (عبد المنعم):

"أسلحة؟"

"الأسلحة مش كفاية دكتور (عبد المنعم) طول ما رجالتكم مش كفء للآن علشان يستخدموها..ومعظم رجالة الجيش عندكم من العناصر القديمة غير الموثوق فيها".

بدا صوت (جمصان) عصبيا وهو يقول:

"يعنى؟"

"أحنا بنعرض عليكم بناء منشآت عسكرية جديدة على أعلى مستوى..بتكنولوجيا أمريكية وتسليح أمريكى و.."

قاطعه (جمصان):

"قواعد أمريكية مستر جيمس؟"

لم يتوقع المندوب هذه الهجمة..توتر للحظة ثم استطرد:

"فخامة الرئيس..القواعد دى بتتضمنلك أكبر قدر من الحماية ..."

"أنا عارف اللى هتقوله مستر جميس..ومستعد أسمعه".

ثم مال عليه وقال فى صوت مكتوم الغيظ:

"مشكلتكم مستر جميس إنكم بتتعاملوا معايا بنظرة فوقية..زى كل دول العالم الثالث..بتتعملوا معايا على إنى شاب متشرد فاشل قاد انقلاب علشان يوصل لكل اللى كان بيحلم بيه وميقدرش يحققه بمقاييس العقل..السلطة والنفوذ والمال..ممكن الستات..أو حتى الانتقام..كلب شهوانى بيحسب كل حاجة لنفسه..عارف إنه وصل للكرسى من غير حق وعارف إنه -غالبا- هيطير من غير حق..عايز ينهب ويجرى..معندوش مبدأ وأكيد أخر حاجة بيفكر فيها هى البلد اللى مسك سلطتها..مستعد يولعها حريقة..يخرها ويقعد على تلها..مستعد يبيع أى حاجة علشان يفضل يحس بالكرسى تحت منه".

ذهل المندوب من هذا الانفجار المباغت..لم يرد وهكذا واصل (جمصان)....

"لكن..تددددددداه..مفاجأة..أنا مش الشخص اللى أنتو تكرينوه..أنا شخص عنده مبدأ..أنا فعلا عملت المجازفة دى علشان الناس..علشان كنت متصور إنى الشخص الوحيد اللى أقدر أثق فيه علشان أخلى البلد دى تبقى أحسن".

ثم تنهد وقال:

"لكنى فى نفس الوقت أضعف من إنى أغير مصير شعب عظيم عمره قرون كان دايما فيها رمز وقدوة علشان أخليه على آخر الزمن يتحول من رمز حر لتابع..كمبارس..مش هأقرر فى لحظة بحاول أحمى نفسى فيها إنى أفرض على شعبى تدخلكم المهين..للأسف إنتم زى الجرب..صعب قوى تخرجوا منها لو دخلتوها..حتى لو اتغير على الكرسى ده مية بنى آدم..أنا أقدر أقول لأ دلوقت لكن مش هأقدر أقول لأ بعدين..التنازلات مفيش تراجع فيها مستر جميس".

انتفض المندوب غاضبا وقال:

"مكنش فيه داعى سيادة الريس للمحادثة الطويلة دى..كان ممكن توفر وقتى ووقتك وترفض مباشرة".

"أنا برفض يا سيدى..برفض"

أغلق المندوب سترته فى انفعال وقال:

"إذن عن إذنك سيادة الرئيس".

"اتفضل".

هكذا انصرف المندوب..وما إن أغلق بابه خلفه حتى اندفع د (عبد المنعم) نحوه وقال:

"يا ريس أنت انفعلت بصورة مبالغ فيها..أنا أول مرة أشوفك بتفكر بالطريقة الغريبة دى..أنت كده هتخسر كل حاجة..حتى لو مش موافق..ماطل معاهم شوية..واحدة واحدة مش كده".

"سيبنى دلوقت يا (عبد المنعم)".

قالها فى غلظة..هكذا تجمد الرجل مذهولا لدقيقة..ثم استدار منصرفا فى غيظ وقد انتابه شعور بالاستياء....

كان (جمصان) يعلم أنه على حق..كانت تصرفاته تزداد حماقة هذه الأيام..لكنه صار عاجزا عن المزيد من التفكير......

أرخى رأسه و ترك نسمات الهواء تداعب وجهه وذاب من جديد فى بحر أفكاره.....

***

القيادة الأمريكية

صوت واثق من الهاتف:

"أيه رأي فخامتك؟".

"مفيش مشكلة..ده اختياره".

"واضح من صوت حضرتك إنك مش مستاء..حضرتك — كأنك — كنت بتتوقع ده".

"الدول العظمى مش بتدار بالظروف..أحنا بنخطط لكل الاحتمالات..مفيش احتمال مش بنعرف نكسب من وراه".

"قصد حضرتك؟"

"هو أختار وإحنا أخترنا..دى دولة إرهابية والناس فى العالم كله هتتأكد من ده..والدولة اللى انفصل عنها الأخ (جمصان) ده بتعرض — للمرة الألف — عدم تدخلنا فى التعامل معاه..طبعا هيكونوا أكثر مرونة عن الأول وهيقبلوا أكيد ولو بعض طلبتنا..أولها إننا نتعاون معاهم فى عملية الهجوم على العناصر الإرهابية فى شولاط..كده

هتعتبر منطقة نزاع وده يخلينا نريح فيها شوية..ده غير مطالبنا التانية..أكيد مش هيرفضوا المرة دى بالذات لو حسسناهم إنه عرض أخير هنضحى فيه بمصالحنا مع شولاط علشان علاقتنا التاريخية بيهم..هيتنزلوا لأنها فرصتهم الأخيرة".

"يعنى (جمصان) خلاص بقى..".

"كارت محروق..فى الواقع خطتنا كانت متوازنة..ما بين استغلال دولة جمصان كحليف للوصول لأهدافنا فى المنطقة وما بين دعمه علشان يكون ده وسيلة ضغط على الدول الأم علشان تستجحب لطلبتنا..برضوه لخدمة أهدافنا فى المنطقة..الخطة كانت معمولة بفرصتين..خمسين فى الميه وخمسين فى الميه..لكن فى رأى الشخصى كان الاحتمال التانى هو الأقرب للمنطق..وأديه بيتحقق..وهاكلمك بوضوع..الخطة فى الأساس مبنية على الإحتمال التانى..إحنا فى الأساس كنا بندعم (جمصان) علشان نضغط على الدولة الأم..علشان بعض التنازلات".

"يعنى؟"

"يعنى تنفذ الأمور دى دلوقت حالا".

***

مبنى المحافظة.....

الساعة الثانية صباحا..مر أسبوع واحد فقط على هذه المحادثة.....

(جمصان) متمددا على الأريكة فى مكتبه..شاحب كالموتى..صامت كالقبر..بينما يدخل عليه د (عبد المنعم) وهو فائر كالجحيم....

"أنت نايم يا ريس؟"

رد (جمصان) فى خفوت مغلقا عينيه:

"فيه ايه يا (عبد المنعم)؟".

"فيه ايه؟..فيه إنها خلاص خربت..كل شئ انتهى..كل يوم حادثة فى الجامعة أوفى الشوارع..وبيكون أطرافها أمريكان أو حتى طوائف دينية مختلفة..وجرايدك الحرة كل يوم بتنشر أخبار الحوادث والاضطهاد الدينى اللى الناس بتعانيه فى بلدك..أمريكا وصلت لكل العالم سوء العلاقات اللى وصلناله معاهم كأنها بتعلن إنها خلاص رمت طوبتنا..مش بس كده..دى بتوصل للعالم إننا بسبب ده بقينا نحاول نأذيهم..ثلاث حوادث إرهابية فى ثلاث سفارات أمريكية فى أنحاء العالم..كل مرة يقبضوا على ناس بدقون ويقولوا إن أصابع الاتهام بتشير يا لينا يا لأحزابنا الدينية..فاهم معنى الكلام ده يا ريس..خلاص..أمريكا ناوت"

رد (جمصان) فى خفوت:

"عارف كل الكلام ده".

"كل ده وأنت مش بتفكر غير فى أخوك..أعيز تمسكه الحكم من بعدك؟..يا راجل أعمل حاجة..اتصرف".

هكذا انتفض (جمصان) فجأة..ظهر ما بداخله من انفعال..وجد نفسه يهب واقفا فى وجه د (عبد المنعم) ويصرخ:

"يعنى عايزنى أعمل ايه يا غبى؟"

"تحاول تصلح اللى اتكسر..قواعد قواعد..لا أنت أول ولا أخر واحد..مية دولة عملتها قبلك محدش قال عليهم من غير مبادئ..قدملهم تنازلات أكثر يمكن يرضوا عنك".

أطلق (جمصان) ضحكة ساخرة مريرة.....

"أنا لسه مستنى نصحتك..أنا عملت اللى أقدر عليه..كلمتهم أكثر من مرة..بعت ميه فاكس..محدش رد عليا..أخرها لقيت رسالة على موبيالى..تخيل؟..مجرد رسالة موبيل..كاتبين فيها إنه خلاص..الموضوع انتهى..خلاص يا (عبد المنعم)..كلامك معدش ليه فايدة".

"يعنى أيه؟"

أمسكه د (عبد المنعم) فى هياج....

"يعنى خلاص؟..ضعنا..الله يخرب بيتك".

دفعه (جمصان) غاضبا وصاح:

"محدش كان ضربك على ايديك..أنا كنت بعمل كل ده علشان حاجة..أنت كنت بتعمل ده ليه؟..علشان دكتور زيك فى محافظة مرمية عمره ما هيوصل لحاجة حتى لو أشتغل مية سنة وفجأة لقى الفرصة قدامه إنه يبقى وزير..سلطة..فلوس..وجاهة".

"أمال أنت كنت أيه إن شاء الله..رئيس وزراء؟..أوعى تكون فاكر إن فيلم المبادئ دى ممكن يخيل عليا..لأ يا حبيى أنت زيك زينا وأسوأ كمان".

تنفس (جمصان) نفسا عميقا..كان بالفعل واهنا فاكتفى بالقول:

"خلاص يا (عبد المنعم)..معدش يجى منه..اتفضل أطلع بره".

"أنا طالع..أنا مستقيل..اعتبر إنك عمرك ما عرفتنى".

ثم تركه وانصرف لكن (جمصان) ناده فى اللحظة الأخيرة..

"متفتكرش إنك بكده هتتنصل منى..أمريكا عرفاكوا واحد واحد".

ثم استطرد:

"وعرفاك أنت بالذات".

صوت الباب يكاد يتحطم.......

***

القرية.....

أمام حقله شبه المحترق جلس (بسطاوى) يشاهد التلفاز..كان الأخير يذيع بيانا أمريكيا يندد باضهاد رعايها وأبناء الديانات الأخرى فى برشوط..لكنه لم يكن شديد التركيز..كان شاردا قد زاد الهم على عمره عمرا.....

"الله يرحمك يا (سعد)..مكنتش مصدقنى..ياما كنت خايف الحلم يتقلب كابوس..وأهو حصل..أنا عارف إنه مش مكتبولنا نعيش زى ولاد الناس أبدا..وأدى البلد رجعت أسخم من

الأول..حتى اللى راحوا ماجاش غيرهم..والحال كله وقف..الله يخرب بيتك يا (جمصان)".

كان محبطا حتى أنه لم يهتم كثيرا لأمر عربة النقل التى وقفت عند منتهى الطريق..لم يقم ولم يسأل..لو كان فعل لكن قد رأى الرجال يترلون الأسلحة منها متسترين بالظلام......

أحد نوادى العاصمة...

جلسة من الشباب حول مائدة يحتسون بعض المشروبات....

"للأسف (جمصان) ضاع وضيعنا معاه يا جماعة..خسارة الراجل ده لو كان اتساب فى حاله كام سنة كان ظبطنا".

يقول الثانى:

"ياعم ظبط أيه؟..ده مجنون..حد يدوس كده فى أمريكا".

يقول الثالث:

"يا عم تلاقى أمريكا هى اللى بتتبلى عليه..ما أنت عارفهم..ما هم مش هيسيبوا حد يعمل حاجة فى البلد دى".

"يا جماعة ده راجل أهبل وغرقنا..الناس كلها خايفة إن أمريكا تخش على قفا هبله ده".

"يا عم أمريكا هى اللى بتتلكك"

"بس هى معرفتش تتلكك غير معاه..علشان عبيط".

"يا أخونا دى كارثة..أمريكا هتخربها".

"الله يخرب بيته".

مكتب رئيس مجلس الوزراء......

الأخير وقد عاد شابا من جديد..يمسك هاتفه ويقول:

"خلاص يا معالى الوزير..كل حاجة تمام..اتحرك".

بيت صغير بالمحافظة...

العميد (زكى)..يقف بثيابه العسكرية وأمامه شخص كبير السن فى ثياب رثة..لكن نظراته كانت مفعمة بالثقة والقوة..كان الأول مبتهجا وقد أدى التحية قائلا:

"تمام يا فندم".

مبنى المحافظة....

(جمصان) جالسا على الأرض..يستند على الحائط وقد بدا كالميت..مبنى المحافظة قد خلا من الناس تماما وإلى الأبد..وبدا كالمقبرة.....

حاول أن يتحدث إلى قادة الجيش لكن أحدا لم يجب..لم يهتم كثيرا..هذ شكليات لا أكثر..رد عليه فيما بعد عسكرى بالجيش يخبره أن كل شئ على ما يرام...!!

هكذا استرخى و لم يفكر أكثر......

***

الإعلام اليوم

جريدة الإجرام (جريدة حكومية):

"قوات الأمن تحكم الحصار على المتمردين فى شولاط..وزير الداخلية يتعهد بتقديم محاكمة عادلة للجناة".

جريدة ضيق البلعوم وهى جريدة معارضة:

"صفقة أمريكية لإعادة الأوضاع فى شؤلاط..ومن يدفع الفاتورة"

جريدة صوت شؤلاط وهى جريدة جديدة حلت محل الجريدة المحلية السابقة:

"قوات الأمن تتحرك فى اتجاه شؤلاط بأعداد ضخمة..تضاءل فرص المتمردين فى النجاة ووزير الداخلية يعد بمحاكمة عادلة للجناة".

***

قناة البحيرة:

يستدير المقدم بكرسيه اتجاه الشاشة الأولى ويقول:

"أستاذ (صفوت)..بصفتك عضو مهم فى الحزب الحاكم..ما هى أخر تطورات الموقف مع الإرهابيين فى شؤلاط؟".

يظهر وجه جاد على الشاشة.....

"أحب أطمن السادة المواطنين إنه فى غضون ساعات هيكون الموقف فى شؤلاط قد استتب..قواتنا مسيطرة على الموقف تماما".

"عظيم..وهل تتوقع مواجهات عنيفة؟"

"إطلاقا..الريس حاطط سلامة المواطنين فوق كل اعتبار..أمال أيه؟"

"أستاذ صفوت..تحب تضيف حاجة؟"

"آه..إن هى دى الشفافية يا معلم..الشفافية"

ثم يدور ويتحدث إلى الشاشة الثانية:

"أستاذ (حسين)..حضرتك عضو بارز فى أحد أحزاب المعارضة..هل كان عندك تعليق؟".

تكلم الصوت من الشاشة الثانية وكان عابسا للغاية:

"طبعا عندى..خلال مدة طويلة كانت الحكومة بتنكر بينما العالم كله عارف اللى بيحصل فى شؤلاط..دلوقت الحكومة بتعلن سيطرتها على الوضع..أيه اللى أتغير؟..أنا أقصد......".

"حسنا..حسنا أستاذ (حسين)..عذرا لوقت البرنامج..هل لديك أقول أخرى أستاذ (صفوت)؟"

***

مبنى المحافظة......

(جمصان) جالسا جلسته التى لم تتغير منذ زمن..فقط اطمأن إلى تهريب أخيه وعاد إلى نفس المكان.....

فى الواقع كان هشا..هشا حتى عن أن يحاول الهروب....

السكون يغطى على المبنى بأكمله..لا صوت..لا حركة......

الوقت الساكن لا يمر......

لكنه لا يقوى على التفكير..يسترخى فقط..ينتظر اللحظة..لم يحاول أن يشاهد شيئا أو يقرأ..فقط ظل كما هو......

حتى حين دوى صوت النيران فى المنطقة..ظل تماما كما هو....

كان كالميت..وكان يفصله عن ذلك لحظات بالفعل....

التقارير الأمنية بعد ذلك ستذكر إن النيران كلها كانت للإقناع بالحرب..لم يكن هناك مقاومة من أى نوع..قوات الأمن من

الخارج..القوات المسلحة من الداخل..عناصر ناقمة من القرى..لم يكن هذا صراعا بقدر ما كان تلاحم للقوى..فقط ظل البعض ليضرب رصاصة أو اثنين قبل أن يسقط......

(جمصان) كجثة هامدة... لم يحاول حتى أن ينظر من الشرفة..أن يرى من يهاجم..فى الواقع كان هناك العديد من القوات الأمريكية..أكثر مما يتحمله الموقف.....

فقط تذكر (جمصان) أن ينطق الشهادة......

ثم دوى صوت الانفجارات.....

لحظات ثم انتهى كل شئ..فى الواقع لم يقاوم على الإطلاق....

***

ذكرت تقارير أمنية فيما بعد أن (جمصان) قد اختفى و لم يعثر له على أثر بعد اقتحام مبنى المحافظة..بدا ذلك غير منطقى للجميع لكنهم أقروه..هكذا تحول (جمصان) من سجل الأموات إلى سجل المختفين.....

ولكن التصريحات الأمريكية جاءت مطمئنة.....

لن تترك أمريكا البلاد قبل العثور عليه.....

كان ذلك مبهجا لكل أنصار الحرية وكارهى الإرهاب بالعالم...كانت القيادة الأمريكية قد أقسمت أن تضحى فى سبيل العثور عليه بأى شئ......

هكذا بدأت القوات الأمريكية فى انتشارها......

وجارى البحث.............

للتواصل مع الكاتب
E-mail: Dr_sherif_shazly@yahoo.com
Facebook account: Dr sherif Shazly (or through the novel page).